ليلى البلوشي

كائناتي السردية

@ketab_n
Follow Me
31.12.2016

قصص قصيرة

دار تنوير
للدراسات والنشر والتوزيع

ليلى البلوشي

كَائِنَاتي السَّرديةُ

قصص قصيرة

Twitter: @ketab_n

عنوان الكتاب: كائناتي السردية
اسم المؤلف: ليلى البلوشي
الموضوع: قصص قصيرة
عدد الصفحات: 126 ص
القياس: 14.5 ❖ 21.5 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN: 978-9933-536-51-0

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
الجمعية العمانية للكتاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITTERATES

سورية - دمشق - ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل او اقتباس، او ترجمة، اي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @ketab_n

ليلى البلوشي

كاتبة عمانية مقيمة في دولة الإمارات

البريد الالكتروني: ghima333@hotmail.com

مدونة الكترونية أتنفّس بهدوء

www.lailal2222.blogspot.com

تويتر: @lailal222

إصدارات أخرى للكاتبة:

* أدب الطفل في دولة الإمارات (دراسة نقدية) دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، ٢٠٠٨م.
* صمت كالعبث (مجموعة قصصية) نهر النيل للنشر، مصر، ٢٠٠٨م.
* تحليقات طفولية في فضاء الكتابة الإبداعية (دراسة تحليلية فنية لقصص أطفال) دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، ٢٠١١م.
* رسائل حب مفترضة بين هنري ميللر وأنايس نن، دار الإنتشار العربي، لبنان، ط ١، ٢٠١٤م.
* هواجس غرفة العالم (مقالات)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط١، ٢٠١٤م.
* قلبها التاسع، (قصص قصيرة جدا)، بلاتينيوم بوك، الكويت، ط١، ٢٠١٤م.

Twitter: @ketab_n

إلى:

كاف الحكاية..

كاف الكائن..

كاف الكون..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يدٌ

1

"أنا لا أتمنى غير يد / يد جريحة، لو أمكن ذلك"..

قرأ بمرارة هذه الأبيات من نص للشاعر الغرناطي لوركا، فكل ما كان يعوزه يد.. يد واحدة تعوضه عن التي طارت في حادث سيارة... لا يعي ماذا جرى..؟!

كل ما لملمته شتات ذاكرته المتخبطة في تلك الليلة.. يد اقتلعت من جذورها لتطير بانفعال إلى الجهة الأخرى من الشارع، كل ما يذكره هي أن تلك اليد عينها لم تكتف بالطيران، بل حين ارتطمت أرضا دهستها بقسوة مميتة عجلات سيارة لا مبالية.. غاب عن الوعي كما غابت يده إلى أشلاء متعفنة..!

2

غدا بيد واحدة.. يسراه التي لا يمكن أن تقوم مقام يمناه لأهم مهاماته كما رصفها في ذاكرته: حين كانت تحتضن شطيرة لذيذة من البيتزا، حين كانت تعانق برشاقة أصابعها كوب القهوة المحلاة وحين.....، كفّ عن خيالاته الساذجة متأففا بخيبة.. فهو يعرف جيدا أن تلك الممارسات اليومية التافهة لا توازي وزنها في شيء نحو أقدس مهام في حياة يده اليمنى: الكتابة..

مذ ذلك اليوم وهو يصارع بضغط إبهام يده اليسرى على قلم يحرر فيها أفكاره التي تتدفق بوتيرة واحدة وحين يستعيد أنفاسه يعيد تنسيقها

Twitter: @ketab_n

بمفاتيح الكيبورد على الحاسوب كما اعتاد مزاجه الكتابي، دون أن يغيّب بأسى أمنيته العتيقة في أن يسترخي على كنبته الحمراء ويده اليمنى تعانق قلما واليسرى كتابا، وهي عادة لم يتوقع يوما أن تفنى كفعل وتستعاد كمجرد ذكرى بهذا الشكل الموجع كلوحة مسوّرة لميت..!

3

سكبت الأيام جل متاعبها على يده اليتيمة لا سيما حين أوكل كافة مهاماته إليها، يخال إليه أنها شاخت من ثقل ما على عاتقها، ولا تكاد تخلو أحلامه في الليالي المؤرقة من أيد كثيرة يملكها كإله شيفا* الهندي..

سرعان ما أيقظت فيه إحدى تلك الليالي رغبة مفرطة في امتلاك يد، فصوته الكتابي في قاعه الذي غدا مظلما من هول المصاب يستدعي بقوة يدا.. يدا تكتب.. يدا تسجل أفكارا.. تحلل عبارة.. تعلق على سطر مستفز.. يدا تمهر بصمتها في هيئة توقيع على صدر كل كتاب جديد بالأصابع نفسها التي كانت تباهي بفعلها هذا فيما مضى..

ولعل الرغبة تراكمت أعمق.. حينما ثقبت إحدى الحوارات في مجلة شهيرة فجوة طازجة في جوفه على هيئة سؤال ساذج استفزّ روحه المكلومة: هل أفقدتك يدك المتشظية سيل أفكارك الشرهة بالإبداع التي أبهرت بها قراءك طوال تلك الأعوام..؟!

كنقطة في نهاية السطر انطبقت شفتاه.. بينما ظل صدى السؤال يتقلّب كجمرة.. بل حسرة ومرارة باتا يغليان بأسى في قاعه.. فتخاذل في ظلمة غرفته بوجوم أمام المرآة التي تحاشى الوقوف أمامها مذ طارت يمناه.. وحين تملكته قبضة من القهر.. تراخى في نشيج ممتد حشرج أنينه ليل وحدته..

Twitter: @ketab_n

4

كان في البدء مزاحا سمجا.. هكذا خاله.. لكن صديقه الذي حاول أن يرمم عنه عبء وجعه.. نفخ في روحه المترهلة أملا من نوع ما رغم غرابة ما ذهب إليه..!

ظلت الفكرة بباله.. يقلّبها.. يدوّرها.. يتخيلها كحقيقة.. ويبدو أن تلك الحقيقة عقدت عزمها في إرسال إعلان إلى أشهر صحف البلاد؛ كي يذيع في صفحاتها عن حاجته إلى يد سليمة بمبلغ يسيل اللعاب..

5

لم يتوقع للحظة أن مبتغاه شاق.. فتواصله الدائم مع الصحف التي استضافت إعلانه.. كانت ترخي من عزيمته متعذرين أنه الإعلان الأول من نوعه للمطالبة بيد.. بل إحدى الأصوات ضيقت عليه دائرة التوقعات.. صوت امرأة قاسية _ هكذا غدت حشرجتها _ حينما أوحت نبرتها بحزم:

- الفقراء يستغنون عن كل شيء سوى عن أيديهم لأنهم بدونها سيموتون لا من الجوع فحسب فهم جائعون سلفا بل من العطالة وهو سبب كفيل لقتلهم مرتين جوعا وكمدا..؟!

أدهشه الرد في هيئة صدمة.. وتذّكر شخصيات قصصه الهامشية حين كانت تواجه أقدارها المريرة..!

6

لم يصدق ما تناهى إليه..!

Twitter: @ketab_n

ثمة يد مجهولة تتريث مجيئه.. أي سعادة يمكن أن تشبع روحه..؟!

أخيرا سيرمم عقدة النقص في نفسه ويمارس كما يحلو له فعله المقدس في الكتابة بعد اتكاله على اليسرى التي عجز عن ترويضها وفق رغباته.. والأهم أنه سيتخلص من عبء الخجل الذي يراوده كلما طفق مستحثا أحد عامليه القيام بتسجيل فكرة طارئة تستبد به في لحظة إلهام مفاجئة..

7

هاله حجم اليد وشكلها..!

اليد المتبرعة بدت كبيرة.. حجمها مسطّح كرغيف خشن يغطيها شعيرات كثيفة كما لو أنها حشائش مهملة في أرض مهجورة.. أصابع غليظة.. أظفارها طويلة قذرة ومتشققة..

تملاّها جيدا كانت كسيخ من اللحم شوّتها الشمس حتى الاحتراق.. بدت اليدان تشكلان تضادا فاغرا.. فكأنما اليمنى وحش واليسرى أنثى زاخم الدلال..!

8

لم يضع في حساباته أن اليد الغريبة ينبغي التعود عليها حتى يشعر بها جزءا من أعضائه.. ولكن أكثر ما كان يثير حنقه حين يضع بين أصابعها قلما فتنطفئ عندئذ أفكاره تلقائيا..!

لم يفلح في فهم شعورها بالاشمئزاز كلما نوى كتابة بعض كلمات أو حتى عند القبض على كتاب ما لقراءته.. ما بال هذه اليد.. ما بالها..؟!

ظل هذا السؤال المؤرق يستفزه بشك مريب..!

Twitter: @ketab_n

9

ساء مزاجه بحدة.. فكأنما اليد تناكفه بغيظ..!

فرطت كل رغباته في الكتابة فكلما ومضت في عقله فكرة وهمّ بكتابتها بيمناه فإذا بها تكسر الفكرة.. تقذف شظاياها بعيدا..

لكن اليد نفسها كانت همتها تشتعل كلما همّ يحمل شيئا ثقيلا بل وجدها تنجذب من تلقاء نفسها إلى تنظيف غبار الأتربة في مكتبته الضخمة أو تعليق لوحة كبيرة على أحد الجدران أو كسح بقعة في حديقته لزراعة وردة..

وفي يوم طفح به الكيل.. فعكف على وعي غضبه باتخاذها طفاية لسيجارة مشتعلة كان يمجّها.. فإذا بالذهول يأخذه.... فإذا بها تسخر من حواسه..!

10

أقسم لرفاقه أن حكاية يده المحترقة واقعة.. وأن أحاسيسه خذلته في معاقبتها..

وإمعانا في إقناعهم طفق على تأديبها بولاعة أمامهم.. فإذا بالحيرة تلتهمهم..!

ولم يغادروه إلا بحكم أجمعوا عليه.. أن تلك اليد - ما من شك - مسكونة بالأرواح..!

11

استملكته وهم تلك الروح.. وظل لليال يعزلها على مسافة منه قدر خوفه، بينما وساوسه تخنقه كوابيسا يشهق على فزعها كفأر واقع في مصيدة.. ولم تهدأ تقلباته طوال الليالي الماضية حتى عزم على معرفة سرها..

Twitter: @ketab_n

12

أبلغته المرأة ذات النبرة المتحشرجة القاسية إياها أن صاحب اليد المتبرعة رجل معدم تخلو عناوينه من الثوابت.. ولكنها رجحت احتمالية وجوده كعامل في إحدىٰ الضواحي حيث الأراضي المقفرة..

توّجه رأسا إلىٰ هناك والشمس حبلىٰ باللهيب كأنها سلطت جمرها علىٰ هامته.. ثمة ظلال منثورة في كل بقعة كبثور علىٰ وجه مشوّه.. هكذا لمحهم عن بعد مسافاته.. متأرجحين كل مع بقعته الملتهبة.. ولا يقطع المسافات سوىٰ خطواته المتحفزة..

كانت عيناه تتصيدان قامة بلا يد.. يد عاشر أختها جيدا.. حاول أن يدنو من أحدهم لعله يهديه إلىٰ صاحب اليد.. لكن الكلمات خانته حين رأىٰ نفسه أمام رجل مخذول اللسان.. تجاوزه وفي قرار نفسه أن يجد مراده بجهده..

ظل يمشي ثقالا والعرق يمسح خطواته.. في كل خطوة كان ثمة ما يستدعيه لوهلة.. وفي كل مرة تختنق الخيبة في بلعومه واجما من هول ما يراه..

تعثرت قدمه بصخرة فسقط علىٰ وجهه، وما انتبه وعيه سوىٰ علىٰ خشخشة أقوام قافلين بعثرتهم ظلالهم المبتورة إلىٰ صوت استراحة هتف بها أحدهم.. حين تحامل علىٰ رفع رأسه ظل انفعاله مبهوتا علىٰ أيّد ما عاد يعرف أيّها تخصّه..!

٩ / ٨ / ٢٠١٢ م

Twitter: @ketab_n

مخطوطة

1

"آآآي"..

ليت أحدا ما يتكرم بتصفحي.. لعله يمر على الصفحة المئنية فيعّدل التواءها.. صدقوني إنني لا أبالغ يا بني البشر، بل هو شبيه بالتواء كاحل رجل أو كسر رسغ يد.. لاسيما إن امتّد زمنا فإنه يخلّف آثارا مشوّهة.. أنا على هذه الحالة موجوعة.. لا أدري مذ متى..؟

لكن أوراقي وحدها تعرف أنها لم تتبلل بالشمس مذ أعوام.. مذ آخر كف خشن ناولتني من على الرف حيث كنت رابضة بغلافي الجلدي السميك بين زملائي الباقين التي بدت أغلفتهم هشة بسبب رطوبة جدران المكان وكنت أعلم لو أن الأعوام أمدت بي في هذا المكان الرطب فسرعان ما يستحيل غلافي المتين إلى شيء مقّشر كما لو كنت مصابة بالجذام..!

تلك الكف التي كانت على عجالة من أمرها على ما يبدو لأنها تصفحتني كما لو كانت في سباق محموم.. ثم ثنت جزءا مني.. لعل صاحبها أراد أن يراجعني بعد فترة.. ولكنه ربما نسي.. وما أكثر ما ينساه بني آدم..؟!

وربما رغب في نسخ ذلك الجزء من تلك الثنية الموجعة لي، أووه صحيح بلغة هذا العصر يقولون طباعة، يضعون الجزء الذي يريدونه منا تحت آلة تحتوينا بأضوائها دون أن نصاب بأذى أو خدش، لكن المسئول

Twitter: @ketab_n

الذي أنابه عن الأمر تشاغل، وما أكثر مشاغله حتى أننا بكاد نلمح ظله الكبير وهو يعبر الممرات المظلمة مع شمعة ضئيلة الحجم تستجدي بين أصابعه الخانقة وهو قابض على رقبتها الرفيعة..!

فبعد أن غادرنا ذاك الذي كان يعتني بنا مضطرا لعلة في قدميه اللتين ما عادتا تحملانه كما أخبرنا ببّحة صوته الحزين في النهار الذي بدا مشؤوما وتعيسا لنا جميعا حتى أنني ذرفت ورفاقي دموعا حارة بعد أن ودعنا بكلمات أبوية..

فبذهابه أدركنا بأننا خسرنا آخر كف حنون.. كم كان عطوفا كما لو أننا أبناؤه..!

ففي كل صباح كان يشرع النوافذ لتحنو علينا الشمس بنورها بعد ليل طويل قابع في العتمة ثم يشرع بعملية تنظيف فجواتنا بمطهرات تفوح بروائح تدوخنا من روعتها ويزيل الغبار الزاحف علينا بهمة عالية بينما صوته الطري بالحيوية يطربنا بنغماته الآسرة ويحدث كثيرا أن يضع آنية من الياسمين أو الريحان بالقرب منا كي نستشعر جمال المكان من حولنا.. وحين ينتهي من أشغال التنظيف والتلميع كان يأتي دور التعرّف على بعضنا كما كانت تقاطيعه الطيبة تقول فيدنو من أحدنا وبكفه الرهيف يختار فصلا من فصول الكتاب المنتقاة فيدلق على مهل بنبرة واضحة حتى ينصت كل من على الرفوف حكاية الكتاب المحظوظ الذي بين يديه..

وبهذه الطريقة تعّرف علينا واحدا واحدا وتعّرفنا على بعضنا في هذا الحيز القابع تحت الأرض، لقد كان قارئا نادرا، محب لكل ما هو عتيق، بل كان يردد مرارا بحسه الطيب كما لو أننا كائنات ناطقة: **أنتم يا أحبائي خالدون تحملون في أعماقكم كنزا لا يقدّر بثمن..!**

Twitter: @ketab_n

وكنا حينها نرفرف من الفرح كيرقات وليدات رغم تاريخنا الشائخ..!

أووه، مهلا.. مهلا.. ماذا هذا.. أحدهم يقوم برص كتاب بمحاذاتي..؟!

2

تضاعف ألمي طوال الليل.. فكنت أطلق زفرات آه بين فينة وأخرى، وكم شعرت بالإحراج من الزائرة الجديدة الذي دُفعت بجلدها الأسود رديفي..! حتى بادرتني بقولها:

- عفوا لتدخلي.. لكن تأوهاتك لا تريح، ما خطبك..؟

- أحدهم ثنى ورقة من أوراقي وهو ما يسبب لي الألم المبرح..!

علقت سريعا بنبرة خجلى..!

- منذ متى وأنت على هذه الحال، ألم يقم أحد ما بتصفحك..؟

- يااااه، قلّبت المواجع يا رفيقتي، مذ مدة طويلة تتوق أوراقي ربق ضوء يحررها من ظلمتها، عندما وضعك صاحب الظل الكبير بمحاذاتي استبشرت فرجا لعل يده تترفق بي.. لكن على ما يبدو أن سكان هذه المدينة لا يحفلون بقراءة مخطوطة عجوز مهترئة مثلي.. تعاقبت عليها القرون حتى انتهى بها المطاف في هذا الحيز المعتم..!

- يبدو أن الفناء يطارد كلينا يا صاحبتي، بعد أن كنا مترفين في الأحقاب التي ترعرعنا فيها.. قالتها بنبرة متحسرة ثم أضافت: **من أي عصر أنت..؟**

- يا لبهاء أيام الخوالي، أنا يا عزيزتي، من عصر ازدهر فيه التدوين والقراءة على حد سواء.. حررني صاحبي على جلود مصنوعة من ورق

Twitter: @ketab_n

البردى.. ولم تلبث أن أنشأت مصانع للورق.. ولتعلقه بي أنكب على كتابتي في ثلاث نسخ وضعها في مكتبته الغزيرة بالكتب واستثناني أنا - النسخة الأصلية - بركني في زاوية من مخدع فراشه وفي كل ليلة قبل خلوده للنوم كان يقلبني بغبطة بين يديه، ولما انتشرت دكاكين الوراقين.. اكترى له واحدة ووضعني بزهو بالقرب من مقام جلوسه وعرض إحدى نسختيّ للبيع والأخرى للاستعارة، فقد كان المكان مزدحما وكان الجميع يفدون لا للشراء فحسب بل لقراءة ما لذ وطاب لهم من صنوف الأدب نظير مبلغ زهيد يتقاضاه صاحبي..

ولما امتدت بنا الأعوام لقي صاحبي حتفه من الحروب التي تعاقبت، الحروب نفسها التي أعلنت بداية تشردي فانتقلت من مدينة إلى مدينة، ومن يد إلى يد، ومن رف إلى رف.. وآخر تلك الحوادث ألقوا بي في نهر ولفيف من زملائي وجرفنا النهر وغرق منا ما غرق..

تبعثرت أوراقي وتاهت أجزاء مني، ولكن بمشيئة من الله انتشلتني يد رحوم، قام صاحبها بكيّ أوراقي المبللة بعدما فقدت ما فقدت حتى لا يضيع جهد صاحبي الأول الذي حررني من فكره.. فرافقته لأكثر من سبعة أعوام، ثم أهداني لرجل طاعن في السن كانت يداه ترتعشان كلما قلّب فصلا من فصولي لكنه ظل شغوفا بي أيّما شغف.. وكان يتصفحني في كل يوم وهو مكب على التدوين في كراس كبير لم يكن يفارقه قط وحين كان ينفعل من فرط حماسه كان يتناهى إليّ تمتماته وهو يثني على صاحبي الأول الذي خطني وصاحبي الثاني الذي قام بإنقاذي من الموت غرقا..

وفي يوم زجت بي يد ضخمة لا تشبه يد صاحبي الطيب وقذف بي في صندوق عتيق ضاق بي الخناق في ذاك اليوم المشئوم مع أشياء لا أذكرها..

Twitter: @ketab_n

وإذا بي هنا على رفّ لم يسبق لي رؤيته، وبعد مرور عدة أشهر سحبتني يد كالريح أمعنت فيّ على عجل ثم ثنت ورقة من أوراقي.. ومذ يومها روحي معذبة لا هي في السماء ولا هي في الأرض.. وهذه هي حالتي كما ترى.. وأنت كيف أُحضرت إلى هنا..؟

- أما أنا يا رفيقتي، فصاحبي الذي عكف على تدويني كان تواقا للرحلات وتجوّل في بلدان كثيرة في أفريقيا ومصر وزار الشام والعراق، وركب على متن سفينة إلى نواحي البحر الأسود وتوغل إلى أقصى روسيا وفي جعبتي كل مشاهداته تلك.. عشت معه كغيمة كل البلاد أوطاني.. تداولتني من بعده أيد تواقة قدروا أسفاري وأضافوا إليّ بعض الحواشي للتوضيح..

ولما فرغوا مني بقيت مهملا في ركن قصي لفترة من الزمن ثم منسيا لأعوام حتى أحضروني إلى هنا.. إلى هذا المكان الذي يبدو موحشا ولا يلائم طبيعتي التي اعتادت الترحال كسندباد..!

- هسسس.. ثمة ظل كبير قادم صوبنا.. هسسس أيها الزائر الجديد..

أحاط بنا ظله الكبير الذي بدا فارعا ومتمددا في الظلام كان في إحدى يديه شمعة وفي اليد الأخرى كتابا حديث الطلة.. غلافه يكاد يبرق من لمعانه ونظافة حوافه، ثبّت الشمعة على طرف الرف العريض ثم طفق يدفع الكتاب إلى جانب الزائرة الجديدة..

ثار فضولي ومن معي بهذا الزائر حديث الطلة فبادرناه بالتحية والسلام:

- سلام عليك أيها الكتاب، يبدو من مظهرك أنك حديث الطبعة..

Twitter: @ketab_n

تلفت حوله كما لو يبدو غافيا، ثم حدق فينا واحدا واحدا قبل أن يرد بنبرة متعالية:

- أهلا.. أهلا.. مهلكم، لا تبتهجوا كثيرا، سأغادركم عما قريب؛ فمكاني ليس هنا في هذا القبو المظلم بين مخطوطات مهترئة تبدو كالأشباح يفوح من أوراقها المتعفنة رائحة الموتى، سيأتي صاحبي ويصحبني معه إلى مكان يليق بي وتتداولني فيها أيدٍ فضولية وتدنو مني عقول متوهجة بالحياة.. ثم أنهى جملته بغرور: أووف، ما هذا الظلام وهذه الرائحة الكريهة.. سأختنق..!

التزمنا الصمت وخشينا أن صاحبنا واهم أو به ضرب من الخبل؛ فلم يحدث قط أن غادر أحد منا هذا المكان من قبل..!

وفي أثناء الليل انطلقت أصوات كانت أشبه بحشرجة سرعان ما علا صراخها وإذا بالزائر حديث الطلة يتأوه بشدة.. صعقنا صوت أوجاعه وهو الذي قبيل ساعات كان يتباهى ببهائه، فبادرناه بسؤال عن حاله:

- ما بك يا حديث الطلة.. مم تشكو..؟

- آآآآه.. حكّة.. قالبي كله يحكُني.. ثمة شيء ما يتآكل في جوفي.. آه.. أرجووكم انجدوني.. أرجوكم افعلوا شيئا.. آآآآآآآآآ.. ما عدت أتحمل.. آآآآآآآآه.. أفعلوا شيئا..

دبّت فوضى هائلة في الرفوف القابعة في الظلمة اختلط بأنين وصراخ صاحب حديث الطلة، ومعظمنا كان مرتعبا من حاله بينما كنت منبهرا فلم يسبق أن رأيت أو سمعت شيئا عن الحكة التي كانت تستدعي كل هذا الصراخ المهول..

Twitter: @ketab_n

سرعان ما علا الأنين حتى صرخ في الذي بمحاذاته قائلا بنبرة لا تخلو على الرغم من سوء حاله من العجرفة:

- هيه.. أنت الذي بقربي حاول أن تسقطني من هذا الرف الرث كي انقلب على الوجه الذي يحكني.. آآآآآه...

- سأسقطك كي أريح أذني من بذاءة صوت حشرجاتك أيها المتغطرس..!

ولم تمر دقائق حتى بهتنا صوت ارتطام من أعلى الرف...

3

ظل صاحبنا حديث الطلة مرمي على الأرض كقطعة بالية دون أن يصدر منه أي نأمة.. جهلنا تماما حاله في الظلام القابع ويئست أصواتنا وهي تصرخ للاطمئنان على مصيره..

مرقت الأيام بلا عبور ظل ما.. وفي يوم تناهى إلى سمعنا صوت صراخ وحشرجات موجعة سرعان ما كتمت الحشرجات بدويّ ارتطامات على الأرض.. لم نكن نعرف ما الذي كان يجري..؟

هالنا الوضع المريب فكل كتاب ساقط كان روحه يهمد إلى أبد الآبدين.. وحين سقط من هم بقربي أدركت أن نهايتي قد أزفت وأن فنائي سيكون شبيها بفنائهم.. رأيتني أدوخ كل ليلة في كوابيس عن موت وحشي يلتهم روحي قطعة قطعة.. ينهش أوراقي في نتف من الفناء..

" لا.. لا.. نريد موتا مشرفا..؟ هكذا سمعت أوراقي تستصرخ بعد كابوس مرعب..!

Twitter: @ketab_n

لن اسمح لهم بالتهام الحقب الطويلة من حياتي.. لن أسمح لها في أن تجردني من تاريخي الثقيل بعار كهذا.. لن أسمح..!

ولذا عزمت على خطة مدبرة وكتمت يوم تنفيذها عن من بقي نابضا بالحياة من رفاقي.. من حسن حظي أن صاحب الظل الكبير فاجأنا بزيارة بعد أيام من عزم نيتي.. ظلت الشمعة في يده تطبع ظله الكبير على وجوهنا كلما تقدم نحونا..

كان الضوء يدنو وظله يتضاءل كلما تقدم نحوي بينما نبضات روحي تخبو وجيبها.. الضوء ينير البقعة المظلمة حيث أنا وبقية من رفاقي الذين يغالبون وجع الأفول..

وحين استقرت الشمعة على الرف بالقرب مني.. تماما - مثلما - رجوت ارتميت على لهبه المتوهج كأن شعلتها قديس جاء ليحررني من قبضة الجحيم..

بهت الظل رغم ضخامته وارتجف من توحدي مع الشمعة.. وفي جسدي يسري عنفوان حمى ملتهبة.. حمى تطهرني رويدا رويدا.. حمى نثرتني رمادا في فم اشتعال مجيد لا فم أرضَة حقيرة..!

٢ / ٨ / ٢٠١٤

Twitter: @ketab_n

فتاة اسمها راوية

حكاياتها بطعم التوابل الحريفة حملتها معها إلينا من أقصى الشرق.. هي "راوية" اسم على مسمى..

أول ما يطالعك فيها لون جلدها القمحي.. وتلكم العينان الواسعتان بلون العسل المصفى وكأن النحلات سكبن فيهما ربق رحيقهن.. متناسقتان مع خديها المضرجين بحمرة قرنفلية ما كان يدفع بقية الزميلات في الفصل وأنا إحداهن إلى قرص خدودنا بأصابعنا باستمرار كي يظلا مشبوبين بحمرة كخديها المفتونين بغمازتين لذيذتين..

ولكن أكثر ما كان يميزها دمها السكر حتى أننا كنا نحذرها بطرافة من حشود النمل التي تجري في شرايينها المعسولة فما تكاد تشرع ذاك الفم المتلئ بشحمته السمراء الطرية حتى تندفع منها النكات كنيازك تفرقع جنباتنا من الضحك..

في الفسح المدرسية نلتف حولها كأوراق الشجر وهي الشجرة التي نمص منها ثمار الحكايات التي عبرتها حين كانت مسافرة مع والدتها إلى الهند.. وكيف أنها التقت بأخوالها هناك وعاملوها كقديسة تدر عليهم بالذهب.. وألذ ما نال إعجابها لذة المانغا الحامض بالفلفل الحار..

وحين حدثتنا عن بشاعة الفقر وعن أولاد صغار يجرون على أكتافهم عربات لنقل الركاب كحمير عوضا عن حمل حقائب مدرسية أسدلت أهدابها الطويلة كجناحي طائر جريح.. لكنها سرعان ما استعادت مزاج

Twitter: @ketab_n

ضحكها حين صرحت بنبرة جادة بأنها سترسل لهم من الأموال التي يدر عليها والدها الثري هنا إلى الأفواه الجائعة هناك..

وكجموع من النمل افترقنا حين زعق جرس انتهاء الفسحة..!

❖ ❖ ❖

في تلك الحصة حين تخلفت المعلمة عن الحضور.. ارتأينا أن نبقى هادئات في الفصل كي لا تشعر بنا المشرفة.. اعتلت "راوية" الطاولات التي راكمناها كمجموعات..

تأهبت لأداء رقصتها الأولى بخطوات متقنة ذهلتنا ثم تداعى جسدها كله في حركات راقصة كممثلة سينمائية تنتقل برشاقة من طاولة إلى أخرى.. كنا مبهورات بها وحين أعياها الرقص ارتمت بأنفاس لاهثة على إحدى الطاولات ثم طلبت منا أن ندنو منها.. وحين أحطنا بها كدائرة والكتف لصيق الكتف ثنت مريولها المدرسي وبأطراف أصابعها المطلية بطلاء أحمر طماطمي فكت أزرار قميصها زرا.. زرا.. وحين تحررت الأزرار كلها.. هتفت لنا بشدقيها ضاحكة: **ما رأيكن..؟**

شخصت أنظارنا مشدوهة وكل منا تلتفت إلى الأخرى.. قهقهت بعدما أمستنا هامدات من الرؤية وهي تنبهنا عبر ابتسامتها الساخرة: **لا داعي للخجل، نحن بنات.. ستجربنها قريبا..** ثم أضافت وهي ترخي جفن إحدى عينيها الشهيتين بينما شفتاها الممتلئتان تلوحان بابتسامة واسعة تخفي خلفها ظلال خجل مصطنع: **وذلك حين تتبقع سيقانكن بسائل أحمر كلون الفيمتو..**

قفلت عائدة إلى رقصها.. أومأت لنا بإشارة من يديها أن نصفق.. سرعان ما علا التصفيق وشغلتنا حركاتها المثيرة وصوت التصفير عن المشرفة التي صفقت الباب بقوة أفزعتنا والتي همدت بقذيفة صرختها ضجيجنا..

Twitter: @ketab_n

فصلت "راوية" لعشرة أيام عن المدرسة.. بينما عوقبنا نحن بالوقوف تحت ضربات الشمس زهاء ساعتين كاملتين على مدى ثلاثة أيام بعد انتهاء طابور الصباح..!

❖ ❖ ❖

تلاشت من بيننا كما يتلاشى الغبار بنفخة من فم الريح ولم تنس تلك الريح في جعبتها حكاياتها.. فبعد مرور الأيام العشرة ذاع خبر نقلها إلى مدرسة أخرى..

غابت "راوية" لكن ذاك المشهد لم يسقط عن ذاكرتي مطلقا بل لكأنه ثبت على عينيّ بلاصق قوي.. جفاني النوم مذ يومها.. كنت في أثناء ذاك الأرق وتلك الظلمة وسط تصاعد شخير إخوتي الصغار أتحسس نهديّ اللذين لم ينهضا بعد وأتخيلهما بحجم بالون صغير أو برتقالة مدوّرة.. أغطيهما بحمالة أشبه بحمالة "راوية" تماما.. فأدرك بخيبة أن ذلك لن يحدث حتى يتسلل ذاك السائل بلون الفيمتو بين ساقيّ بجرمه المشهود..!

❖ ❖ ❖

تفاقمت وساوسي في الآونة الأخيرة وأصبحت أتردد على الحمام كثيرا.. أدخله في اليوم الواحد عشرات المرات.. فكرة أن يفاجئني السائل بلون الفيمتو أرعبتني للغاية.. فسكن ذاك الصياح من حنجرتي حين كنت أطلق شرارات تذمري في وجه أمي كفتيل للخروج.. لكن الآن غدت كل رغبة خروج مفقوءة بوسواس داخلي: **فماذا لو فاجأني في بيوت إحداهن..؟ وإن تسلل بين ساقيّ وأنا في السوق فما العمل..؟!**

هكذا كنت أحاصرني بمخاوف إلى أن تقلصت اهتماماتي شيئا فشيئا بمن حولي حتى أنني أحطّت وسط دوامة قلقي على ارتداء ملابس غامقة في

Twitter: @ketab_n

ألوانها.. وإذا ما قعدت في مجلس كنت آخر من ينهض.. خشية أن تتبقع ملابسي على حين غرة..!

بل راح فضولي يجوب ملابس أمي في الحمام التي كانت تكومها في سلة الملابس الوسخة لحين غسلها.. وعثرت في أثناء بحثي ذاك على حمالاتها التي كانت بمقاس كبير وحين جربت إحداها تزحلقت أسفل قدمي..!

وفي نهار أثناء تطفلي في الحمام وقع تحت يدي في أسفل السلة التي تكوم فيها أمي ملابسها الداخلية شيئا كان يخصها وعليه بقعة جافة بلون الفيمتو.. كان لونها باهتا وانبعثت منها رائحة كريهة.. أفرغت يومها معدتي بقرف..!

وبعد المراقبة المضنية لملابس أمي الداخلية في الحمام.. عرفت أن تلك البقعة تلازمها في كل شهر مرة واحدة فحسب وعلى عدة أيام..

❖ ❖ ❖

حين بدأ صدر عائشة زميلتي في الفصل يتبرعم.. نكست رأسها قبل أن تهمس لنا بصوت مرتبك أن والدتها نبهتها بأنها على وشك البلوغ.. فألزمتها بلبس الشيلة بينما ملابسها العتيقة الضيقة منها والقصيرة تبرعت بها لصناديق الجمعيات الخيرية كما أنها اقتنت لها حمالات تلائم حجم نهديها..

بعد أسبوع من تلك الحادثة بكت عائشة وسط دهشتنا في الفصل أثناء حصة الرياضة وكان صوتها الذي يجهش من شدة البكاء ينادي بأمها، وحين نهضت برفقة المعلمة إلى غرفة الاخصائية الاجتماعية هالتنا بقعة شاذة بلون الفيمتو على قميصها الرياضي الحليبي..

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

طفقت كل واحدة في الفصل تترقب دورها، فبعد عائشة كانت سلمى وخديجة ومنى وريم..

في نهاية العام الدراسي كل زميلاتي في الفصل بلغن سن ارتداء الحجاب والصلاة..

❖ ❖ ❖

كن يأكلنني بسؤالهن في كل يوم فأحرك رأسي بخيبة..!

مع الأيام صرت أتوق رؤية هذا السائل بلون الفيمتو الذي يتحدثن عنه بخوف مرة.. وبإعياء مقرف في مرات أخرى، بل كل واحدة منهن وكما - أسررن لي - تضطر إلى ملازمة البيت في أول يوم لها..

❖ ❖ ❖

حين بلغت عامي السادس عشر تضاعف هلع أمي والتي كانت بدورها في كل صباح تحاصرني بالسؤال عينه:

- ألم.....؟

أداري توتري على الوضع المريب الذي أنا فيه وأرد عليها بلغة لا يفضحها ذاك التوتر اللعين:

- لا..

أطلقها وأنا استعجل حمل حقيبتي المدرسية، هربا من نظراتها المشوبة بقلق كبير..

ولكن في اليوم نفسه حين عدت من المدرسة دنت مني ثم أدخلت يدها وسط دهشتي في ياقة قميصي الداخلي متحسسة باليد عينها نهديّ اللذين

Twitter: @ketab_n

برزا قليلا، فاسترخت تقاطيع وجهها قليلا بعد الانقباض الـذي تملكهـا في الآونة الأخيرة..

❖ ❖ ❖

استلقيت على السرير في عيادة الطبيبة المختـصة في شـؤون النـساء التـي عرضتني أمي عليها.. أمرتني بصوتها الغليظ الذي ينبعث من رأسها الكبير الموصول برقبة من عدة طوابق:

- ارفعي...

رفعت ثوبي كله بناء على طلبها ولكنهـا بيـديها الـضخمتين خلعـت مـا تحتي..

تحاشيت وسط خجلي رؤية وجهها طوال مدة فحصها لي وحين انتهـت أدارت لي ظهرها ولم تقل شيئا..

بكت أمي طوال الطريق دون أن تنبس بشيء وكأن فمها خيّط بإبرة.. وحين قفل والدي راجعا من العمل في ذلك اليوم بسحنته المنطفئة سـحبته سريعـا إلى غرفتهما وظلا يتهامسان طوال الليل دون أن يصلني من حديثهما نأمة..

❖ ❖ ❖

أتذكر هذا في يوم زواجي.. وأنا أمـام عـروسي مـأخوذ ببـشرتها القمحيـة وعينيها الممتلئتين بالعسل والتي حين حاذيتها همـست في أذني عبـارة فهمـت منها أنني لن أقربها لأيام معدودة.. وحـين هممـت لمـساعدتها في خلـع ثـوب عرسها تدلت من النهدين حمالة حمراء كالتي بهرتنا بها ذاك اليوم في الفصل..!

٢ / ٣ / ٢٠١١م

Twitter: @ketab_n

شجرة أحلام

هل ستعثر على شاهدة قبر أحلامك

"أم شجرة أحلامك مورقة..؟!"

- بشير مفتي -

- لبعض الأحلام مسرات خاصة..

رميت حكمتك الأولى ببساطة ظاهرة، لا تتعارض مطلقا مع براءة الأطفال في التلفظ بأول جملة في مراحلهم الحياتية الأولى..

و يلفظ فمي جمله المركبة بطلاقة بينما تقلصاته تشبه حركات مغنية أوبرا حاذقة في إطلاق صرخاتها، هكذا يختلج لساني الحالم، بينما يدي اليمنى تقلب في نوتة صغيرة ذات أوراق ملونة أريك إياها بافتنان كبير كيف أنني استثنيت كل لون منها لأحلام أتوقها حسب درجة حميميتها مني.. فالأصفر لأحلام بعيدة المدى.. نطقت ذلك باقتدار مفرط أشبه بعالم مسكون بعبقريته الفذة.. والأزرق لأحلام مسكونة بالطموح.. أما الزهري للأحلام التي تشاكس قلبي.. همست بذلك على مرأى منك ثم اختلجت العبارة بحياء لم أعرف كيف انفلت عنه.. بينما انفرج شفتاك عن ظلال ابتسامة تمايلت على إثرها سيجارتك المطفأة بمرح على جانب الفم كبرج بيزا..

Twitter: @ketab_n

ولأنني كنت مهووسة بالأحلام.. صرت أتخيلني في وسط دغل ممتد تحفّه أشجار جمّة.. من بينها شجرة ضخمة ذات أفرع أشبه بأصابع بشرية رشيقة.. وكل منها على كثرتها معشبة كغابة.. حين رسمت تلك الشجرة بمقتضى مخيلتي.. دونت في أعلى الورقة عبارة "شجرة الأحلام" وألصقتها على سبورة بيضاء اعتدت أن أدوّن عليها ملحوظاتي التي لا أريد لها أن تتعفن في قفص النسيان.. وهناك صرت أرى شجرتي تترعرع كل يوم بطريقة غامضة وعلى غصيناتها جملة أحلامي التي تتكاثر شيئا فشيئا..

وحدهم الدراويش أمثالنا لهم الحق المشروع في ترقيع أحلامهم.. إن مزقتها روح طائشة أو داسها قلب مثقل بالحقد..

تطلقها وأنت ترشف بمزاج رائق شاي الأخضر الذي حضرته لك.. واكتفيت لحظتئذ في التماهي مع حكمتك كامرأة مبهورة بخاتم مطوق بالماس..

في المقهى تقابلت وجوهنا مع تعامد الشمس فانعكست صفرتها على النافذة حيث قبعنا.. فغدونا رأسين ملتهبين يتمايلان حينا يمينا وحينا شمالا تبعا لقوة الألفاظ التي كنا نعبث بها..

وصرت أحكي لك عن حيز بعض أحلامي التي كنت أتخيلها أحيانا صغيرة بحجم كف اليد أو كبيرة كساحة ملعب أو التي تغدو فضفاضة كثوب امرأة بدينة أو ضيقة كأنبوب مص..

وحين انتهيت من عرضي.. قلت لي بهدوء راهب:

Twitter: @ketab_n

لكن بعض الأحلام تتلمس دربها جيدا وبعضها الآخر تتوه في دهليز وقد تظل ضائعة الهوية لأعوام مهما بلغت سعة حجمها..

وحين نطقت بعبارتك تلك حدقت في عينيّ كلمحة خاطفة ثم انكفأت ملامحنا تذوي رويدا رويدا في شهوة الظل.. ملامحي وملامحك والنادل الذي وضع فاتورة الحساب أمامنا..

❖ ❖ ❖

- نحن نحلم كي نوسع حصتنا من الحياة في بطن هذا العالم الجشع بشراهة حوت..!

يومها تملكتني دهشة مفرطة.. ها هي حكمة أخرى تحبو من فضاءاتك الشاسعة..

- "لا"..

ردت سذاجتي بحماس من لا تزال متشبثة بسياسية تقفيص الأحلام..

لكنك ضاعفت الصاع صاعين حين أردفت مضيفا:

لملمي أحلامك، قد لا تكفي الحياة لها كلها.. بل قصي أجزاء منها.. لعلها تتحرر من قراصنة لا شغل لها سوى وأدها حبة حبة..

يومها وضعت يدي على قلبي.. وعيني على الشجرة الوارفة بسيقان مزهرة يترشح عبقها أحلاما مراهقة تبغي الخروج من قفص العبودية..

وحكمتك أسندت ظهرها على كرسي خشبي وطيء الأرجل وفي فمه سيجار مطفأ..

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

- ما رأيك بحلم كنت وحدك ملكته ولكن في يوم ما خان مملكتك إلى أخرى..؟

وكانت عيناك تقدحان مرارة لم أعرّهما التفاتا يذكر وقتئذ.. غير أنك برعت بمهارة طبيب متقن لعمله في إطلاق خلجات نفسي؛ كي أثرثر في حضرتك عن سيرة أحلام كنت قد تكهنت في امتلاكها أخيرا.. وانتفخ بالون ثرثرتي حتىٰ سقط سؤالك في أسفل حديثنا.. فما عدنا نذكره كلانا..!

و عيناك ظلتا تلازمان بريقهما الحاد ولم أعرّهما اهتماما وقتئذ..

❖ ❖ ❖

كانت شجرة الأحلام هي جلّ اهتمامي.. كنت مفتونة بها.. لفرط ضياعي في عظمتها لا أذكر كيف افتتحنا جلستنا اليوم بالتحديد..؟

يا ترىٰ، ماذا قلت لي قبل ذهابك.. هذا ما عصي علىٰ ذاكرتي التقاطه..؟!

❖ ❖ ❖

تتابع لا حضورك.. فانشغالاتي كركبت أوضاعي في الآونة الأخيرة.. إنني سعيدة بإنجازي.. تفرعت شجرة أحلامي.. أجل.. لقد أنجب كل حلم حلما آخر.. ما أكثر أحلامي.. ما أكبرها..!

لكن أين أنت..؟!

❖ ❖ ❖

صادقت الهدوء.. ولم تنطق بشيء طوال الوقت الذي كنا فيه معا سوىٰ ردا علىٰ تعليقاتي التي كنت أفرقعها بين الفينة والفينة.. وحدها شجرة الأحلام كانت ممتلئة بالكلام..

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

- كيف هي أحلامك يا ربة الفيض..؟

لم تكن من عادتك أن تبتدئ أحاديثك بعبارات كاشفة كالتي أطلقت..!

"كيف هي أحلامي".. "كيف هي أحلامي"...؟

صار صوتي يردد العبارة كببغاء..

والجواب.....؟

❖ ❖ ❖

غبت.. يوما.. يومين.. عشرة..

ثم عدت..

وعقلي يتحيز سؤالا منك.. عبارة ما..

لكن يومها أدهشتك شجرة أحلامي العملاقة..

وحين غادرتني خيل إليّ أن شجرة أحلامي كبرت مرتين..!

❖ ❖ ❖

إنني أتضاءل وأتضاءل وأتضاءل ووحدها شجرة الأحلام تتضخم..!

تستطيل فضائي حيث أقف مذهولة من جبروت جذعها.. من ضخامة أوراقها الحاملة لأحلامي التي سجلتها طوال تلك الأعوام.. من ثمار أينعت حتى كادت ثمراتها المنتفخة من النضج أن تنفجر وتهطل مدرارا من الأحلام.. أحلام أنجبت أحلاما.. إنها متشابكة مع بعضها كأسلاك كهربائية ملتحمة بدرجة يصعب علي المرور عبرها.. إنها تتعملق.. أوراقها الخضراء كثيفة كشعر فتاة يسد علي أضواء المكان وأنا أتلاشى في وسط

Twitter: @ketab_n

دغل مظلم.. هممت بالصراخ.. ولكن لا صوت.. فضغطت على بلعومي الجاف بأظافري الحادة حتى خلفت خدوشا دامية الأثر كحبال حمراء رفيعة.. أين أنا..؟!

كل شيء يكبر.. وحدي أتخبط في محيط المكان.. مكان شاسع.. فإذا بي أرى شجرة أحلامي تكاد تلتهمني مشتعلة في نيرانها.. وأما اللاتي انفلتن من النار الهائجة كن شائخات كأنهن عشن ألف قرن.. كل واحدة منهن متحررة تفر بأنفة دون أن تعيرني أدنى اهتمام.. وكأني لم اسقهن من راحتي يوما ما..!

في ذاك القاع الخاوي.. كان ثمة حلم واحد فقط.. رغم وجع المسافة بيننا.. أفرحني استقلاله عن شجرة أحلامي المحترقة والفارّة..

وكان سيجاره هذه المرة مشتعلا يتدلى..!

١٥ / ٢ / ٢٠١٢م

Twitter: @ketab_n

آكلو الولائم

لم يكن البرد وحده يحفر في عظامهما، بل إن معول الجوع مذ يومين متتاليين لم يهدأ عن ثقب معدتهما الفارغتين اللتان طفقتا مذ الصبيحة تعزفان أنينا تصاعديا يعلو ويخبو في تسابق غريب من نوعه، عزمت جدته العجوز أن تنهي هذا الإعياء مستسلمة رغما عنها للنوم..

بينما تقلّب هو على جنبيه، فما تزال سياط جلد الشرطي على ظهره تحرقه، كثيرا ما كانت أمه تبكي حين تتحسس خطوطه الحمراء كأسياخ مجمرة تنحت جلده الهزيل بعشوائية، فتضمد تجاويفها بسائل لزج كريه الرائحة تعجنه من أعشاب عديدة تلم بقاياها من هنا وهناك في البرية، بينما لسانها يقذف لعانه على اليد التي خلفتها: **سحقا لهم أولئك الملاعين، أي بغايا أنجبتهم..!**

يظل لسانها يلوك لعناته حتى تندمل جراحه تدريجيا بفعل سحر أعشابها كريهة الرائحة.. وحينئذ يعود إلى سابق عهده ولكن بحذر أكبر؛ كي لا يقع في أيدي أولئك الملاعين مرة أخرى كما كانت أمه تلعنهم، ولكن حين كثفت الشرطة حراستها في الشوارع، ارتأى أن يتحصّل على لقمته بطريقة أخرى، فكان في بعض الليالي يتسلل بخفة قط إلى بيوت يعرف أن أصحابها ذوي كروش كبيرة ليستولي على ما غلا ثمنه، وعلى الرغم من محاولاته الناجحة إلا أنها لم تفرز سوى تشددا للحراسة من قبل أصحاب البيوت

Twitter: @ketab_n

حين تناهى إلى لفيف منهم خبر تلك السرقات التي تقع في آخر الليل، بل بالغ بعضهم في حرصه باستقدام كلاب ضارية تلتقط رائحة اللص من على أبعاد..

رغم أن ذلك أسعد والده، فجرّه إلى عمله، بعدما لم تجد أمه عذرها المعتاد كي تمنعه، كانت تخشى عليه، لاسيما في الليل، فعادة السكارى أولئك الذين كان والده يسطو على أموالهم في أثناء فقدهم للوعي، لم يكونوا أقل خطورة من الشرطة التي تلهث وراءهم، فلا يكاد ينسى تلك الحادثة التي أفزعته وهو ابن السابعة، حين دنا من سكير بعدما استلم والده آخر، هذا السكير توجه مترنحا إلى سيارته، وحين فتح الباب لم يجد بدا ليأخذ ما بحوزته سوى أن يصعد إلى رديفه، وحين اقترب منه حاول أن يمد يده إلى جيبه، سرعان ما قبض ذاك السكير على يده، وقادها في وسط الظلمة إلى مكان لزج كابسا بقبضته القوية على يده الصغيرة، أردف مع هذا الضغط يئن بصوت عال يتبعها بعبارات وقحة ثم أطلق لهاثا حادا مثيرا، فجمدت الدم في عروقه ولم تهرب يده الصغيرة من قبضة يده القوية، إلا بعد أن تراخت قوته من أثر القيء الذي اجتاحه دفعة واحدة..!

مذ يومها بغض السكارى ولم تقبل أمه بالعودة إلا حين أقنعها والده بأغلظ الأيمان بأنه سيلصقه به كظله.. وحين لقى والده مصرعه في حادثة سير لم تقبل والدته بعودته مطلقا..

و حين غادرته هي الأخرى بعد أن نهش الجذام لحمها، ظل يواظب على عادة التسول أحيانا لما تقتضي الظروف والسرقة في أحايين أخرى..

Twitter: @ketab_n

"آه، آه، آآآآه" لم تكف جدته العجوز عن الأنين، فمذ يومين لم يسقط في جوفها سوى الماء، تحامل على نفسه رغم الإعياء الذي استطاله، تسلل إلى الخارج ببطء؛ كي لا يوقظها.. ولم يكن أوفر حظا مع السماء المظلمة، فها هن الغيمات المتشحات بالسواد تنذرن عن عاصفة، قطعا حينئذ سوف يتداعى الصندوق الخشبي المرقع كثوب بال الذي يحتميان فيه هو وجدته عن العالم الخارجي..!

اندفع بنزق يفتش ككلب ضال عن شيء ما يملأ معدته الخاوية، توجه صوب القمامات، زفر بحنق على الجوعى الملاعين الذين يلملمون من القمامات والشوارع كل شيء حتى ما لا يمكن أكله، سرعان ما تناهى إليه أصوات نباح، حاول أن يدنو من مصدر الصوت دون أن يغادره قلق من نوع ما غرسته جدته فيه مذ كان صغيرا، لكن جوعه الكافر قاده إلى مصدر النباح، سرعان ما رأى ثلة من الكلاب بدو كحشود في زاوية نائية من المقبرة، وحين اقترب لم يشعروا به، كانوا يتصارعون على قطعة لحم مثخنة بالدم يتسابقون في التهامها بشراهة.. ولما تراءت له رأس مشعثة بتقاطيع حادة، كاد أن يفرغ ما في جوفه، لكنه كان على جلد بطنه فلم يجد ما يلفظه..!

استيقظ على جلبة جدته، وهي تواصل أنينها الذي اعتاد على فراشها اليابس، بينما يدها تضغط حجرا على معدتها بقوة، حاول النهوض إلا أن الأشياء طفقت تدور من حوله وكأنه على أرجوحة تعبث بها الريح، سرعان ما خيل إليه في تخبّطه أنه أمام دجاجة كبيرة يسيح منها الزيت، وحين أحكم قبضته عليها كانت أطرافه الهزيلة تقبض على عنق جدته التي

Twitter: @ketab_n

كادت أن تختنق لولا أن عاجلها بقطرات من الماء في فمها، جاهد الوقوف رغم أوصاله اللاهثة من التعب وهو يشق خطا متثاقلة إلى الخارج..

قادته خطواته المترنحة إلى أرض المقبرة، حين تراءت له بقايا العظام التي أهملتها الكلاب بعد وليمة البارحة، تأكد أن ما شاهده لم يكن حلما، فقفل راجعا لكن قدمه علقت بشيء بارد، نكّس رأسه كانت قطعة مشربة بالطين بفعل الأمطار، تملاّها مليا بين يديه، ثم أطبق عينيه وهمّ يمضغها بأسنانه الشرهة دون أن يبالي بذرات التراب التي استقرت في معدته..

عزم أن يرابط قرب المقبرة، حتى لا يخدشه مخلب الجوع في الأيام القادمة، لا سيما تلك الكلاب الضارية أضحت مع القحط المتفشي تلتهم عادة الوليمة كلها، ولا تبقي سوى على بقايا عظام..

بعد مرور يومين لمح موكبا منتصبا على رأس المقبرة، بينما معاول تردم فجوة عميقة في جزء منها، حفظ في سره المكان جيدا، تريث حتى انتصاف الليل، فتسلل بهدوء إلى حيث الفجوة، تحسس البقعة بيده، كان التراب رطبا على نقيض المساحات الأخرى..

استغنى عن المرابطة خلال الأيام التالية، فمن التجربة الماضية أدرك أن التربة الرطبة تخبئ في جوفها وليمة طازجة، وحينئذ ينكب على تقطيعها بسكينه الحاد، يضعها في كيس أسود كبير ثم يواري تراب القبر..

كان هذا اللحم يكفيهم لسبع ليال، وفي الليلة الثامنة يوّسع خطواته الحذرة كما يفعل في كل مرة، يحرر وليمته من التراب، ولكن حين غدت يده تتحسس أكثر من موضع رطب، كان لا يتوانى عن إخراج تلك الولائم

Twitter: @ketab_n

وتقطيعها وترك جزء منها لسد جوعهم، والجزء الآخر طفق يعرضه على الباعة في السوق..

مع الأيام أضحى أهم بائع لحم في الأرجاء، غدت جيوبه ثقيلة، استبدل تلك القطعة المرقعة التي ضمته وجدته إلى بيت واسع، سهل عمله أكثر حين استعان ببرادات لتخزين اللحوم التي كان يضطر أحيانا إلى حفظها لأيام عديدة حتى يبيع ما بين يديه..

ووحدها جدته غاض إحساسها بكل ما كان محيطا بهما، فكانت صحتها تتردى رغم غفير من الأطباء الداخلين والخارجين، وفي أصبوحة إحدى الأيام رأى نفسه أمام جسد بارد كقطعة جليد..

مذ رحيلها شعر بيتمه الحقيقي، ووحدها تجارة اللحوم سدت ثغرات ليالي الوحدة، لكنها لم تخل من مرارة الثقل، وفي ليلة شعر بيد تجس كتفه الأيمن، وحين شرع عينيه شاهد بالقرب منه جدته تطلق صرخات رهيبة ما لبثت أن دنت منه وهمت كفيها تلطمانه بعنف سرعان ما أحكمت قبضتها على عنقه، لكنه استطاع أن يقفز من فراشه مفزوعا، وحين عاد إليه وعيه، أدرك أنه تقلّب في كابوس بشع، بينما جسده متفصدا بالعرق يرتعش..

لم تكف تلك الكوابيس عن ثقب صمام لياليه التي أضحت تسيل فجاعة يوما بعد يوم، فعزم في إحدى الليالي أن يذرع الطريق باستقامة، إلى المقبرة التي دفنت فيها، تناول معوله وهمّ بحفر البقعة التي ضمت بقاياها، كانت ليلة مظلمة، استغرق الحفر عدة دقائق، ضاعفها..

Twitter: @ketab_n

وحين لم تسعفه الظلمة في أن تسفر عن شيء، ظل يحفر أعمق، لكن المعول كان يلتهم ترابا، اشتد حنقه، قفز إلى الفجوة الفارغة، أخذ يحفر التراب بيديه بجنون ولا شيء سوى عواء يدمي حنجرته..!

طفق حزنه يغذي نفسه، كان يلتهم كل الولائم التي يتصيدها من تلك المقابر، يلتهم حتى آخر نتفة منها، ظل يقضم بشراهة كبيرة حتى نما جسده، فغدا شبيها بديناصور ضخم، وحين ثقلت حركته، غذّ سيره إلى حيث دفنت جدته، هناك في تلك الفجوة العميقة استطال..

في الليلة الأولى كلاب ضارية بشراسة اقتطعت أوصاله، ورغم أعدادها الغفيرة لم تستطع أن تلتهم سوى ساقيه، وفي الليلة التالية لمح يدا هزيلة تحاول جاهدة أن تسحبه من الحفرة التي بعثر الكلاب رملها، وحين أعياه الثقل غاب هنيهة، قبل أن يعود مع أيد كثيرة تزاحمت تجرّه بكامل قوتها، رُفع بعد عناء كبير تدارك أنفاسهم، تناول صاحب اليد الأولى ساطورا حادا، بينما الأيدي الأخرى قبضت بإحكام على الأجزاء التي أبقتها الكلاب، أخذ جسده المتكتل باللحم يتراخى قطعة قطعة، الفخذ الأيمن، الفخذ الأيسر، اليد اليمنى، اليد اليسرى، الكبد، الطحال.... ق. ل..

١١ / ٣ / ٢٠١١م

Twitter: @ketab_n

ذبابة وصاحب الأصابع

قطعة الحلوى.. تلك التي كانت حلما مفرط اللذة.. طالما كنت أتوق إلى لحسه بلساني الطويل أو حتى جسه بحدقة عيني البارزتين.. ولم أكن أتصور أن الحلم الذي كنت أتوق إليه أمامي على بضع خطوات قليلات..

علي الاعتراف بهمّة لص محترف هو أنني في البدء كنت أتوجس خيفة من تلك المسافة وذاك السواد كجناح خفاش.. فقد خامرني شعور مرعب بأنه قد يهرسني بلامبالاة كما ترون هي مسافة غير محمودة العواقب وهكذا هي مسافات الأحلام عادة تكون مزروعة بالألغام..!

لكنني لا أنكر قطعا إن نتفة الحلوى التي التصقت بذلك التجويف الأسود كبقعة شاذة هو ما حملني على تلك المغامرة.. إنها مغامرة تستحق يا جماعة.. حتما ستوافقونني..!

خيالي مستمتع.. يلحس بلسانه الشبق نتفة الحلوى كما لحست الضفادع باستمتاع بالغ أجدادي. فأبي. فأمي. ثم الصغار من إخوتي حتى ردمتهم ولائم في بطنها المنتفخ.. لكنها لم تتمكن من لحسي.. وووووووواع.. تخيلوا أن تكون نهايتي على لسان ضفدع لزج.. واااااااااع..!

تعبر الحادثة المشؤومة ذاكرتي.. فألعنه وأقذفه بسباب بذيء لا داعي لذكره مطلقا يكفي أنه بذيء في قاموس الشتائم.. وأنا على بعد مسافة

Twitter: @ketab_n

وعيني قناص ماهر على نتفة الحلوى اللاصقة هناك في انتظار شجاعتي.. قطعا لست جبانا.. لكن الحذر مطلب أساسي في الحياة لاسيما حياتنا نحن.. تفهمون صحيح..؟!

تجرأت أخيرا بعد أن كنت أرنو صوبه والمسافة بيننا في كرّ وفرّ.. يصدر منه ضوء مزعج.. كان هادئا تماما.. لا يصدر منه أي نأمة.. لكنه يتلوّن.. هذا الشيء له لون.. وغالبا ما أرى فراغا أبيض تمشي عليه نمال سوداء.. تتبدل أحجامها في كثير من الأحيان ولكن ليس دائما..

اعتقادي مع مرور الأيام ومعاشرة هذه الأجواء تبدل.. فتلك التي اعتقدت أنها نمال نشيطة تصطف في صفوف منتظمة كجنود لم تكن سوى خطوط سوداء تصنعها أصابع كبيرة تصدر صوتا مبهما تتتككك.. مرارا في كل يوم وفي الساعة عينها وبلا كلل.. وعيناي تمتصانه بينما لساني الذي تعوّد على تذوق الحلو يلحس بلذة نتف الحلوى التي أصادفها هنا وهناك على هذا الشيء العجيب..

حدث وفاق لا شعوري بيني وهذا الشيء المضيء.. طيب دعوني اعترف.. فكما تعلمون أنا أحب الاعترافات الصادقة.. كانت نتف الحلوى التي تتساقط من عل.. هي كل غايتي ومطامعي الشخصية طبعا.. ولكني لست أنانيا لدرجة ألحس وأمصمص دون اعتراف بأفضال الآخرين.. أنا والقطعة الضوئية توافقنا تماما.. ولم أعد أخشاها مطلقا حتى صاحب الأصابع التي تصدر صوتا مبهما.. تلك التي لا تستريح إلا ما ندر فهي تجري بهمة على فراغات بيضاء هائلة..

Twitter: @ketab_n

اليوم تحديدا على الرغم من أني لا أعرف ما الذي تفعله هذه الأصابع لكن ما - لفت نظري - هو صوت صاحبها.. كان يلهج بجمل وعبارات لم افهم منها شيئا ذا بال بينما أنا ألحس نتف الحلوى المدهشة.. وحين تجشأت شبعا.. شحذت أذناي جيدا وتبين لي أنه يقرأ ما تصدر أصابعه من حركات رشيقة طوال تلك الأيام وأحيانا يتوقف لوهلة مستعجلا ليقضم قطعة من الحلوى التي تكون نتفها المتساقطة من عل حلالا زلالا لي وحدي.. كان أيضا يحتسي بصوت مسموع رشفات من كوب يغطي نصف وجهه حين يدنيه من شفتيه..

كانت البقع السائحة من فمه بلون تراب متعفن بالرطوبة.. تلك الرائحة التي اشتهيها كثيرا وحين تدلك لساني الفضولي مادا نفسه بلا استئذان ليتذوقه كان طعمه لا أدري كيف أنعته لكم..؟ لكن على أية حال لم يعجبني.. يالـ مرارته على لساني..!

- **"كنت وحيدا حين فارقت أمي الحياة.. تجلت كل الوحدة فيني.. استوطنت أعماقي.. حتى شعرت بأنني أغرق.. أغرق.. أغرق ولا نجاة لي"**..

مسكين.. صاحب الأصابع..!

اليوم كانت هذه العبارة ضمن العبارات التي أصدرتها أصابعه على القطعة الضوئية.. سمعته يكررها مرارا حتى أنني تذكرت أمي الحبيبة.. شهيدة ضفدوع جشع.. كم كانت دلوا من الحنان وإبريقا من المشاعر الدافئة.. عفوا.. يبدو أن لساني الذي كان وظيفته اللحس فقط غدا

Twitter: @ketab_n

شاعريا.. كنت سأنقل لكم المزيد من عباراته الصارخة.. لكن قطرات كوبه الضخم كانت تتدفق حيث أنا بالقرب من نتفة الحلوى التي قاربت على الانتهاء من التهامها فهل تريدونني أن أتخبط في بركة سوداء تلك التي كادت أن تغرقني وهي تهطل مدرارا إلى الأسفل حيث أنا..؟!

إنني امتلئ.. بل انتفخ كقطعة بلوط.. لا.. ليس من نتف الحلوى فقط.. أعني ليس من الطعام فحسب بل من صاحب الأصابع هذا.. إن ما يسرده بصوت عال كل يوم رغم أنه يجعلني أتثاءب كثيرا.. لكن ثمة شيء لا أعرف ماذا تسمونه أنتم.. لكننا في عالمنا نقول له.. مممم، أمهلوني قليلا أفكر.. "ط ن ط ن ن ط ن" أوه يبدو أن قاموسي الطنيني لا يسعفني.. إذن دعوني أستعير عبارة من لسان صاحب الأصابع مما يطلقه كفرقعات على حين فجأة.. فأنا غدوت أنيسه الوحيد طوال تلك الأيام فحين يغدو مرحا بلا أدنى سبب واضح يردد: "أووووو، واااااو... أووووو، واااااو"..

- **"أووووووو، واااااو" إذن أقول أنا...**

يا حرام..! اليوم نشج صاحب الأصابع نشيجا مضاعفا حتى كادت مادة لزجة هبطت من أنفه أن تقضي علي كليا.. ما أكثر السوائل التي تهطل من هذا الرجل.. مرة من فمه.. مرة من عينيه.. مرة من منخاريه.. الحذر الحذر..!

حياة صاحب الأصابع هي جنائز لا تنتهي البته.. إنه يبكي عليهم فردا فردا وكأنه هو من خنق أنفاسهم.. فاتني أن أخبركم.. صاحبنا هذا كف عن تناول الحلوى في الآونة الأخيرة.. كان فقط يحتسي ولكن ليس من كوبه

Twitter: @ketab_n

الكبير ذاك بل من كؤوس زجاجية بلّورية نحيلة تشبه فستان دمية بشكل مقلوب وعلي أن أعترف بجدية بأنها أخافتني في أول الأمر حين وقفت أمامها فإذا بوجهي يتمدد ويتضاءل كلما اقتربت منها أو ابتعدت عنها ولكن سرعان ما اعتدت على مزاجيات الكأس البلوري كاعتيادي على مزاجيات صاحبه وكان لقطراتها مذاق لاسع.. فحين كانت تتسرب من أسفل فمه رشفة من تلك الرشفات كنت أميل عليها بلساني الطري.. فأترنح لحظتئذ.. أقفز.. أرقص.. أحلق.. حتى أنني أنسى ما يحدث لي بالضبط ولكن شعور الانتشاء كان يضخني بخبل لذيذ..!

لم يكن أمام القطعة الضوئية حيث تعودت.. لكن سواده الوطواطي كان مشرعا.. لن أكذب عليكم.. ثمة نتفة من الحلوى.. يبدو أن صاحب الأصابع تذوقها في أثناء ترنحي الذي لا اذكر عنه شيئا ليلة البارحة "أووووو.. واااااو" إنها نتفة بحجم كبير.. مغرية.. لذيذة.. لا يستطيع لساني مقاومة هذا الكم الهائل من..... واااااو...

لا أدري متى انتصب خلفي صاحب الأصابع..؟

اعتقدت لوهلة أن أصابعه ستكبس على زر يضيء مكاني حيث أنا كما يفعل عادة، لكن أصابعه اليوم كانت تكبس على شيء غريب.. بينما صوته الذي تعودت عليه يسجل عبارات فهمت من نبرتها أنها..... مممم لا أعرف كيف أصفها لكم، عجزت عن فهمها..؟!

أنقل لكم نشيجه الغريب كمواء قطة على وشك قضاء نحبها بينما لساني يلحس بتلذذ نتفة الحلوى الكبيرة.. أمص وأنقل لكم ما يردده تماما...

Twitter: @ketab_n

أوووو.. ما هذا.. واااااااااااااو إنني أتزحلـق.. أوووووه.. لالالالا. أنـا..
هنا.... ت.......................!

ديييييييييج..

طاااااااااخ..!

٣ / ٩ / ٢٠١٠م

Twitter: @ketab_n

المُقَدَّسَة

(ليس ككل الأحياء كان حيّهم، فقد عهد رجالهم مذ استوفت عظامهم واستطالت قاماتهم أنهم فدية للحرب ولا شيء غير الحرب، فكان الرجل منهم حين يبلغ، يشحذ سيفه حيث يخترق قلب عدوه، ولا يتأتى له الفرج إلا حين يسمع أن سيفه اخترق رؤوسا وقلوبا لتكون وليمة للذباب، هكذا كان رجالهم تباعا يتبع أحدهم الآخر، حتى خلا الحي كله منهم، عدا الشيوخ وأولئك الذين تجشمهم خَبل ما)..

❖ ❖ ❖

"بمرور سنتين"

لم يصدقه أحد.. ولم يعيروا حديثه أدنى قيمة، فقد بهتت حماسة النسوة من صداه المتكرر في لجج الليل والنهار عن قدوم قوافل الرجال الغائبين في ساحة الوغى، حتى الشيوخ الذين علقوا قلوبهم على أمل نداءاته، ضجّوا منه كما ضجّوا من الحياة كلها..

فأنّى لمعتوه مثله قذفه القدر إليهم مخبولا مذ ولدته أمه؛ أن ينطق ما ستر عنه عقولهم الواعية..؟!

لكن صدى "سيّاف" ظل يخترق الجدران المفحمة، مذ أيقظ الشتاء مفاصل الحي، والصدى لم يته عن فيافي نبوءته، فسرعان ما هطل نبأ وصول

Twitter: @ketab_n

رسول مع فرسه المطهمة، مبشرا بأن قوافل الرجال على وصول بعد أن لاكتهم تلك الحرب بأوجاعها..

فازدان الحي كله، وأضحى يوم قدومهم رافلا كطاووس أعيدت له مجده، خصوصا لنساء الحي، فرطبت الشفاه بحمرة بعد أن تشققت من اللظى، واكتحلت الأحداق واختالت أجسادهن المكدودة في لباس حريري بعد أن اخشوشنت بالسواد وزينت الرسوغ والأيادي بالأساور والحلي، وبسطت الموائد على الأرض بما لذ وطاب، محتفيات كل على حدا برجلها الحاضر من الموت..

إلا إياها كانت قابعة في بقعة عارية باردة، فكل البيوت في الحي استدفأت برجلها عن لوثة الصقيع و"هاجر" تجتر حزنها في ثوب حداد، كالفحم استحالت أيامها حين نكأت منذ عام على نبأ فجيعة زوجها تحت سنابك العدو، مذ نهارها ذاك أدبرت الحياة كلها من عينيها البهيتين، استحالتا فارغتين إلا من لوعة الكمد والدمع المحرق، وليس من كائن يصيخ السمع إلى أوجاعها سوى جدران دارها المقفرة..

ولما تناقل جدرانها فحيح جارتها وهي في حضن بعلها مدغدغة به، شعرت بالحقد وتكاثف داخلها توجعا كغيمة سوداء، فأرعد شيطان الوحدة يؤرق مضجعها عن التعاسة التي تلفها يتيمة بلا سند..

❖ ❖ ❖

"بعد مرور سنة"

ما أعنف شغفهن للأمومة، ولكن لا يتضاعف عن شغف الرجال إلى وليد يعينهم كفاف العيش حين تعجز أجسادهم عن ذلك، فالحرب،

Twitter: @ketab_n

ستأخذهم فردا فردا، ورحيل أحدهم بلا سند تتكئ عليه أسرته من بعده أمر مؤسف للغاية..!

لكن الشتاء أُجهِض.. وتخللت الشمس أفياء النخل العالية عانقت الأرض ظلا، ولم تنطلق طلقات من فم رشاش ما مستبشرا عن حبل أي امرأة من نسوة الحي، ضجر الرجال من عقر نسوتهم، فأذّن الرعب نداء شيطانيا في معاقل قلوبهن، وسرعان ما دق ناقوس الخطر، فأضحى الرجل الواحد يعدد في حلاله، وبعضهم تجاوز الرابعة دون أن تبشر بحبل ما، وبعد عبور تلكم السنتين أدركوا أنها لعنة حرب تلك الأعوام التي قضوها في خنادق مخنوقة، فغدا الحي مقفرا، واجما كالقبر، وخلا من الأطفال تماما..

❖ ❖ ❖

(عادوا.. وعقروا ذكورتهم على لعنة حرب خاسرة)..

هكذا كان صدى "سيّاف" يعوي مع أحراش شجيرات الغاف المضاجعة لأناة النسوة الملتحفات سواد أيامهن الخاوية من غطيط الأطفال، بينما حمأة القيظ تغلي جباه الرجال المنكسين ولعان يتقاطر يبصق بذاءته في وجه "سيّاف"، ووجه كل لعين ردد هذا البيغاء الآدمي سماجة هذا اللعن..!

و"هاجر" لم تُخف غبطتها عن ذلك، فها هن يتذوقن بعض ما ذاقته من حنظل القهر، ها هن وفي أحضان بعولتهن عاجزات، وكل واحدة منهن في حشاشة نفسها ترى أن ترملها خير من بعل انقطعت عنه سبل حياة جديدة مفعمة بأمل حقيقي، وها هي تتساوى معهن، كلهن سيفنين بلا قرة عين، غير أن كمد الغيرة لم يهدأ في داخلها كلما لمحت إحدى جاراتها برفقة

Twitter: @ketab_n

زوجها، أو كل شريكين يتآنسان برقة، فكان ذلك يعذبها بحرقة كبيرة، تتمنى لو أن زوجها بقربها وإن تجشّمه عقر ما..

❖ ❖ ❖

"بعد مرور ثلاث سنوات"

انصهر الحي في بؤسه بتراخ مرعب، ففي النهار تقضي النسوة المنكودات نصفه منتصبات كأعواد من الخشب، تلهو الريح بعباءتهن حيث يحلو لها اللهو أمام قبور أحد الصالحين، ونحيبهن يخترق حتى الصدى: (**يا فحل الفحول نريد ولدا قبل الحول**) أما الليل مصلوب على وهم شرشف ثقيل، وظلال عارية بلا تلاحم..

وفي ذاك النهار لما قذف الموت كفن أحدهم في عمق عتمة القبر، أخرست الألسنة من فزعها، كشطت العيون جاحظة حتى البلعوم، وأيقنوا وأيديهم المتشققة من غبار الأيام على قلوبهم أن مصير كل من في الحي، لن يتباين عن مصير "قارون" يوم ابتلعته الأرض، ومُحي عن الوجود كأن لم يكن..

❖ ❖ ❖

عندما تداعى الصوت على امتداد المسافات المتراخية لفضاء السمع من حنجرته بُهِتوا، أطرقن النسوة وأيديهن تستر عجب أفواههن الفاغرة، أما الرجال فقد جحظت أعينهم من الدهشة، بينما صوت "سيّاف" ما يزال يصهل في صدى الحضور: (حُبلى.. هاجر.. حُبلى)، والألسنة من كل حدب وصوب تقذف دهشتها: (**الأرملة التي أدبر عنها بعلها في ليلة عرسها إلى الحرب حُبلى..!**)

Twitter: @ketab_n

رجمتها النسوة بالكذب، فكيف والرجال تطاردهم لعنة حرب خاسرة..؟!

وتغامز الرجال إلى بعضهم البعض، وهواجس تجس نبض العقول عن الفحل الذي ألقم رحم "هاجر" الحياة، فكانت الحيرة تطرحهم يمنة ويسرة..

وحين وضعت حملها همد صوت الوليد ضجيج الأفواه، غلبهم حنين جارف إلى قطعة اللحم الحية، احتشدت النسوة حوله والحرمان يعتصر قلوبهن، وهن ينتزعنه من يد إلى يد تقبيلا وشغفا للأمومة الضائعة، والرجال كل يتمنى في دخيلة نفسه لو أن هذا المغضن في لفيفه من صلبه..

ولما كان حبلها الثاني.. كممت الأفواه عن مكاشفة حقيقتها، فقد رأوا في "هاجر" القشة التي تستقيم قبضة الحي عن الغرق الأبدي، فالوليد يمثل حياة جديدة، يبذر من خلالها حيوات أخرى..

سرعان ما تراءت لهم امرأة قدست من المولى، وأن معجزة كمعجزة العذراء شملتهم، تشبثن بها النسوة، كل منهن تعرض أعزّ ما تملك على "هاجر" علَّ بركتها تشملهن، لكنها في كل مرة كانت توصد أبوابها في وجه رجائهن المذل، ويرتسم على شفتيها دهاء ممدود..

تضخم كبرياؤها، ورأت أن حبسها في ظل حائط واحد، لن يُرضي كبرياءها السامق، ولا يشفي غليل أيامها الدامعة، ومن هنا أخذ الرجال يَعرضون فحولتهم على المباركة، متسللين في البدء خشية حنق زوجاتهم، ومع مرور الأيام أضحت فحولتهم تتبرك في حضنها برضى زوجاتهم،

Twitter: @ketab_n

خصوصا أن "هاجر" نتيجة الولادات الكثيرة أخذت تلقم كل البيوت في الحي وليدا تتبرك به وترمّم عقدة النقص في النسوة البائسات..

"هاجر" التي نفخت رجولتهم واحدا، واحدا.. أخيرا هدأ حنقها، فاحتفت بمجدها وهي المدللة من قبل الرجال والمحبوبة من قبل النساء، وهي أم أطفال الحي وسيدة الجميع..

❖ ❖ ❖

"بعد سبع سنوات"

غطّست كاحلها المدور بالبياض في عمق النهر، بعدما علقت ثيابها على غصن ضليل.. ولما تغضن جسدها الطري من انتعاش الماء الجاري، امتدت يدها إلى ثيابها المشجبة فشعرت بيدين حارين يطوقان خصرها العاري من الخلف، فزعت، وحين شخصته بعينيها همّت أن تعنِّف في وجهه، لكنه بمهارة فائقة أطبق على شفتيها بأنفاسه الحارة، فسرعان ما تلاشى فزعها واختلط بشبق مجنون، فانصهرا مع ذوبان شمس المغيب..

وحين ذاقها عبر تلك الشهور، طفق يجوس وصوته يتردد كببغاء في أرجاء الحي: (حُبلى.. سلمى.. حُبلى..!)

١٠ / ٥ / ٢٠٠٨م

Twitter: @ketab_n

صاحبة الابتسامة الساحرة

يذوب معهن كل ليلة ورغباته تهطل بتدفق شلال.. وماؤه الآسن يكاد يغرق غرفته المظلمة وما فيها..

أحيانا من حرارة رغباته المنصهرة يتوه كليا مع تلك المشاهد الفاضحة لنساء عاريات.. فيلعقهن بمحجريه كأنهن في أحضانه وبين فخذيه، هكذا تتوالى لياليه بين القنوات المشفرة والصور المتلاحقة في شبكة الانترنت وأشرطة الفيديو..

وفي صباح يغادر بكسل إلى (دوامه) ورأسه دائخة من لياليه الحمراء وعيناه مرهقتان في غيمة من هالات سوداء أشبه بمتعاطي الهيروين، يتصاعد تثاؤبه لاعنا في نفسه: **"عليك لعنة الله يا محمود، كل هذا بسببك"**..

محمود الموظف الذي اشتهر بترويج أشرطة فيديو الإباحية ومفاتيح القنوات المشفرة والمواقع التي تتعرى صورا فاضحة.. لطالما أغراه: **"صدقني يا يحيى، ستقضي أجمل لياليك مع أي امرأة يرغب بها مزاجك.. روسيات.. فلبينيات.. لبنانيات.. كل ما تشتهيه مخيلتك موجود.. ما عليك سوى كبسة زر"**..

مذ يومها وهو يقضي سهراته في البيت إما جامدا أمام التلفاز أو ساكنا أمام الانترنت.. وأمه المسكينة تعتقد أنه أصبح رزينا ولا يسهر خارج المنزل مع (شلته) الفاسدة تلك، كم بعثرت نصائحها في وجهه، وكم بصقت

Twitter: @ketab_n

حسرتها في تعديل سلوكه، لكن كبسة الزر السحرية جعلته طوع عيني أمه التي لا تعي ما يفعل في غرفته المظلمة دوما..!

يذكر أنها منذ أسبوع في يوم عيد ميلاده الثالث والثلاثين كم أهرقت دموعا حارة وهي تستجديه أن يتزوج؛ كي ترى أحفادها الصغار وهم يلاعبونها وينادونها جدتي..

منذ ذلك اليوم وسيرة الزواج تكبر في ذهنه، تحفر أخدودا في فراغ قابع في ذاته، يستشعر معها أنه بحاجة إلى امرأة حقيقية يعجنها بين يديه، يقبلها، يعانقنها، وأن تلك المواقع والصور الفاضحة قد همدت روحه وجسده وعمره..

"نعم، يجب أن أتزوج.."

هكذا عزم.. وقرر أن يفاجئ أمه المسكينة التي لا تملك في الدنيا سواه..

ولما توجه إلى المنزل.. دفق خجلا في وجه أمه برغبته في الزواج، لم تصدق في بادئ الأمر، وهي التي كانت لسنوات تناشده ذلك، وسرعان ما انطلقت زغرودتها نشوة به..

❖ ❖ ❖

قرر أن يتخلى عن أشرطة الفيديو وأن يلغي الانترنت نهائيا من حياته، وغيّر موجة القمر الصناعي الذي كان يعرض قنواتٍ إباحية واستبدلها بقنوات دينية وثقافية وفكرية..

وذهب مع أمه والسعادة لا تسعه لخطبة ابنة عمه.. فأمه دوما تقول: **"ابن العم لبنت العم"**.. ولما فاتحوا العم وابنته بالموضوع، ضربا قاعدة بنت العم لابن العم عرض الحائط.. بحجة أن حظه من التعليم لا يتكافأ مع ابنة العم حاملة شهادة دكتوراه بينما هو دون المستوى المطلوب، خرج

Twitter: @ketab_n

من بيت عمه وتعاسة تجره جرا، لكن أمه سرعان ما بددت تلك الغيوم السوداء بأن الفتيات يملأن المنطقة كلها وما له سوى أن يشير كي تسجد إحداهن جارية تحت قدميه..

فذهبوا إلى منزل جارتهم أم سناء، لديها بنات كثر كالنمل، ولابد أنهم سيرحبون به.. ويهللون لقدومه، وقع اختيارهم على إحداهن، ولكنها ألقت سياط رفضها في وجهه قائلة أنه أكبر منها بكثير فهي ما تزال طالبة في مقاعد الدراسة، ولما جاوزا الطلب لأي واحدة من أخواتها، زعقن رفضا بأنه اختار أختهن السابقة دونهن في البداية..

غادرهم وموجه من الغضب تموج في داخله: **"إنهن فعلا ناقصات عقل ودين"**..

❖ ❖ ❖

استفحل به شبح اليأس.. شهور وهو يدور مع أمه من بيت إلى بيت ومن منطقة إلى منطقة، بل لم يتركوا بقعة واحدة من المناطق المجاورة، والأبواب توصد في وجهه، منهن من تقول أنه بدين، وأخرى ترى أنه طويل أكثر من اللازم، وبنت فلان تنعته بالجاهل، وأخرى تطلب مهرا يقصم الظهر، وفتيات المناطق الأخرى رفضن بحجة رفض فتيات منطقته الذي ترعرع معهن في سنن الطفولة، حتى أمه المسكينة ما عادت تهرق دمعها رغبة لرؤية الأحفاد..

غير أن بصيصا من النور ومض في داخله عندما اقترح عليه أحد أصحابه أن يتزوج من أجنبية، فهن أرخص ولا يسببن وجع الرأس كبنات البلد..

Twitter: @ketab_n

ولما توجه للجهات المختصة طلبا للإذن، قذف الموظف معاملته في وجهه وهو يذعن: **"سنك القانوني لا يسمح بذلك، عد عندما تكون مخرفا وإحدى رجليك في القبر وأخرى في الحياة"..!**

شق قدميه الثقيلتين بينما تناهى إلى أذنيه وهو يغادر بجسده صوت العامل وهو يضرب كفا بكف مع زملائه في المكتب قائلا: **"لا حول ولا قوة إلا بالله، بنات البلد مكدسات كالذباب في الوطن وهو يفتش في خارجه.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. اللهم ثبت عقول الشباب"..!**

❖ ❖ ❖

قلّب الهاتف بين يديه.. وعزم على الاتصال بمحمود كي يأخذ منه أشرطة الفيديو ومفاتيح دخول القنوات والمواقع الإباحية، وينسف فكرة الزواج نهائيا من حياته..

قهقه محمود الذي رحب به وبطلبه، واتفقا أن يستلم ما طلبه منه في العمل..

وعندما أطبق على أنفاس هاتفه النقال.. رأى أنه منتصب كالنخلة أمام إحدى محلات لبيع أقمشة نسائية، كان محلا فاخرا يكتظ بالنساء من أشكال وأحجام مختلفة، قذف لعانه في سره لهن وهو ينعتهن بالبغايا، غير أن منظر إحداهن على الواجهة المحل كان غريبا.. كانت تحدق فيه بابتسامة مغرية يشق شفتيها العليا والسفلى كرزتين مضمختين بحمرة قرنفلية ويسفر عن أسنان لؤلؤية داخ معها بأحلامه وهو يجاريها بابتسامة أكبر..

قرر أن يتجرأ ويقترب منها، دفع الباب.. توجه نحوها مباشرة.. رغم أن صفا من النساء تكتلن حولها، وكلهن غانيات.. غير أن قلبه خفق لها وحدها من أول نظرة، كانت ترتدي بنطالا من الجينز مع قميص وردي مقلم باللون الذهبي اللامع..

Twitter: @ketab_n

"يااااأالاه.. على تلك الجبال الشامخة في مقدمة صدريتها المكشوفة.."

رأىٰ أن ابتسامتها مشجعة علىٰ الاقتراب أكثر، فقرب المسافات حتىٰ كادت أنفاسه تلامس وجهها الغض ببياض الزنبق النقي..

هل يضع يده السمراء علىٰ يدها البيضاء، سرعان ما تراجع عن هذه الفكرة الشيطانية.. خاصة أنظار المارة الكاشفة بدأت تلتهمهما..؟

وودعها حيث هي، بعد أن تأكد أنها مرابطة في هذا المحل دوما..

❖ ❖ ❖

كل يوم وهو يرابط عند بوابة المحل الزجاجي اللامع والابتسامة الساحرة ذاتها تشرق بين شفتيها منفرجتين لذة، مرة يراها بالجينز الأزرق الضيق ممزق عند حواف الكوعين يعلوه قميص من الشيفون الأحمر بلا أكمام تزين صدريتها حبات من الفصوص الفضية البراقة.. ومرة أبصرها في فستان ذهبي يتمايل فيها خصرها كأفعىٰ رشيقة، يرتفع بانسيابية يغطي عنقها العاجي وينفرج بفتحة ضيقة بين النهدين الضاجين في حبسهما السافر..

❖ ❖ ❖

تعشش في داخلها ودارت أمانيه حولها غير قادر أن يتنفس امرأة أخرىٰ، ظلت لليال وهي تذرع في مخيلته بابتسامتها الطاغية، وقرر أخيرا أن يمتلكها..

جرىٰ إلىٰ أمه ليزف لها خبره، ولما أخبر أمه لم تصدق أذنيها، وظلت تهاجمه بسيل أسئلتها عن أهلها وفصلها ومن أي منطقة قطفها..

خرج من عندها وهو يردد بحبور: **"ستعرفين كل ذلك لاحقا"**..

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

جهزت أمه كل تفاصيل الحفل، بعد أن بعثت بطاقات الدعوة لكل الناس..

بينما توجه هو إليها، وأقعدها إلى جانبه، حتى أن مهرها لم يكلفها كثيرا، وأخذا يجوبان معا المحلات التجارية لشراء مستلزمات الزواج من قمصان النوم والملابس الداخلية والأحذية والحقائب اليدوية.. الخ..

ولما عانق جسدها ثوب الزفاف لم يصدق عيناه، وظل يلقي على مسمعها سيلا من كلمات الغزل..

حتى وصلا إلى صالة الأفراح، والناس تجمهروا من كل حدب وصوب، ليتعرفوا على العروس الفاتنة، هاتف أمه أنه وصل مع عروسه وأخبرها أنهما سينزلان معا..

كانت القاعة مظلمة.. وأضواء الملونة الوامضة تتراقص بخفوت سافر، وارتفع صوت موسيقى الزفة في القاعة الكبيرة، بينما الأعين كلها منتصبة على منصة النزول، والبوابة تشرع كما الصدفة بهدوء يستفز فضول الحاضرين.. أمه بدأت تزغرد وتبكي في آن..

دخلا معا.. والابتسامة الساحرة إياها على شفتيها المغريتين بحمرة، والنساء في القاعة بعضهن شهقن وأخريات غرقن في ضحك متواصل، وهناك من كانت تحوقل بعجب الدنيا والناس..!

بينما هو يجر دمية (المنيكان) بابتسامتها الساحرة خلف وميض من أضواء الملونة الراقصة..

٢ / ٥ / ٢٠٠٦ م

Twitter: @ketab_n

أنا وأمي وأختي حليمة

في كل صباح أقطع الخطى إلى الشارع العام.. حيث يكتظ بضجة أبواق السيارات وهي تشق طريقها وسط الزحام مع أفواه تصارع لذة التثاؤب الصباحي ووجوه أخرى يعانقها الخمول.. وهمّة بائعي الجرائد وعمال النظافة بزيهم البرتقالي ونسبة شحيحة من أصحاب بعض المحال التي تفتح دكاكينها في بكرة شروق الشمس.. وأصحاب المقاهي الذين عهدتهم مذ بدأت أمارس نشاطي هذا في الصباح بعد ما كلفتني أمي بذلك.. تقول إنها تخاف عليّ من لصوص الليل ومن بعض السكارى والشاذين في الطرق المدلهمة..

أربض أمام إحدى السيارات من نوع "لاند كروزر".. كم أعشق أنواع هذه السيارات التي تشي مظهرها بالعلو والفخامة..! وكم أحلم أن أجلس في أحد مقاعدها يوما ما..!

هكذا كنت أحدّث أختي حليمة بينما هي في كل مرة كانت ترمقني بنظرتها التي لا تخلو من العجرفة وتسكتني بلغتها التشاؤمية..

صاحب السيارة ذو وجه بشوش يضع على عينيه نظارة طبية بعدسات دائرية تلاءم أرنبة أنفه.. أزاحم الخطى خشية أن تظهر العلامة الخضراء.. أصل إليه بأنفاس لاهثة.. أنقر على زجاج نافذته اللامعة جدا حتى أنني أرى انعكاس صورتي فيها وصور بعض المارة من خلفي.. يلتفت نحوي..

Twitter: @ketab_n

يشير إلى هاتفه النقال.. انتظر وعيني على ساعته الذهبية باهظة الثمن.. وأمنّي نفسي بأحلام اليقظة بامتلاك ساعة توفر عليّ عناء معرفة الوقت بالضبط في كل مرة أخرج فيها.. ينفقئ خيالي على صوت بائع الجرائد وهو يزيحني بقوة عن زجاج النافذة ويعرض جريدته على صاحب "اللاند كروزر" يستلم الجريدة ويقبض البائع الثمن وحين أقف بدوري بالقرب من النافذة المشرعة تزعق أبواق السيارات من خلفه فتمرق السيارة مسرعة مع الإشارة الخضراء..

أرتدّ قافلة بيأس إلى حيث كنت على الرصيف.. أتأفف من يومي وألعن صباحي.. وعندما أعود إلى البيت اشكي لأمي سوء الحال.. فترفع معنوياتي بكلماتها اللطيفة وتقول إنني لم اعتد بعد على العمل الصباحي بعد التبادل في الأوقات الذي حصل بيني وأختي الكبرى حليمة التي كانت تتذمر من الاستيقاظ مبكرا..

وعندما تعود أختي من نوبتها المسائية تغيظني بعجرفتها وكسبها الوفير.. وتعلن بتعالٍ بأنها حين كانت تكدّ في الصباح كانت كسبها يدرّ، فتتهمني بالخمول وتنعتني بالغبية.. لكن أمي تفضّ النزاع بيننا عندما تضع بقايا الأطعمة الشهية من بيت العمة شيخة.. وهي امرأة وسع الله عليها في المال والرزق.. وتعمل عندها أمي منذ أكثر من شهرين كخادمة تكنس وتطهو لهم.. وكل ما يفيض عن حاجتهم من مأكولات تسمح لأمي بإحضاره لنا.. ونحن في كل مرة نترقب حفلات أعياد الميلاد ومناسبات أخرى تقام في بيت العمة شيخة كي نلتهم أشهى الموائد..!

Twitter: @ketab_n

وبعد فترة الظهيرة ترسلني أمي إلى دورة تحفيظ القرآن الكريم في المسجد القريب لحيّنا.. حيث يجتمع جوقة من الصبية والفتيات الذين كنت أصادفهم أثناء العمل سواء في الأمسيات التي كنت أعمل بها أو في أصبوحات أيامي بثيابهم المرقعة والباهتة..

كانت أمي لا تهتم بتعليمي مطلقا وتكرر دائما أن شهادات ليست مهمة والكسب باليد أفضل.. ولكن عندما علمت أن هذه الحلقات تقدّم مكافأة مالية لكل من ينهي حفظ جزء من القرآن.. حرصت من خلاله على مواظبة إرسالي وكذلك فعلن أمهات بقية الصبية والفتيات..

في البداية شعرت بالضجر من الحلقات ولكنني اعتدت عليها والمبلغ حفزني أكثر على الحفظ.. فأصبحت أردد كل ما يلقنّه المطوع على مسامعنا أثناء قيامي بعملي صباحا بين السيارات وفي المساجد أو حتى بين المحال التجارية حيث يتجمهر الناس للشراء..

وفي مواسم الأعياد كان المطوع يحرص على تسليم كل منا مظروفا خاصا نسلمه ليد - وليّ الأمر- كما كان ينبّهنا في كل مرة حين يضع هذه المظاريف في أكفّنا الصغيرة.. ويوم قدمته لأمي تهلل وجهها فرحا على المبلغ في جوفه..

انكفأت أمي تلبسني في أيام العيد ثيابا عتيقة، مرقعّة في أكثر من موضع، أبدو فيها كفزاعة وسط مزرعة مخضرة.. تعلل فعلها بأن ذلك يجعل الجيوب الجافة طرية والنفوس الشحيحة سخية.. وكان فعلها مصيبا.. فمجرد وقوفي على الرصيف كنت أحصل على أوراق نقدية من فئة خمسة وعشرة دراهم.. ونادرا ما يحدث ذلك في الأيام العادية..

Twitter: @ketab_n

يمرق من أمامي أطفال في ثياب جديدة.. وتحمل الفتيات في مثل سني حقائب يدوية مزركشة تحاكي ألوان ملابسهم الأنيقة ولون الحذاء والإكسسوار كذلك.. إحداهن ترمقني بنظرة غريبة فتتهامس مع زميلاتها ثم يخطون نحوي أسرابا من الفراشات زاهية الألوان.. أنظر إلى ثيابي الرثة فأخجل من نفسي وأتمنى لو أركض بعيدة عنهن.. أشعر وكأنهن يلتهمنني بضحكاتهن الساخرة ويحتقرنني بملابسهن الجديدة.. فأتقهقر بخطواتي إلى الوراء.. غير أن إحداهن تستوقفني عندما تهتف باسمي: "خديجة".. تكرره على مسمع من الجميع: "خديجة.. خديجة".. وتضيف بصوتها الناعم: " ألم تتعرفي عليّ".. أنا "نوف"..

وحين أعرف أنها إحدى حفيدات العمة شيخة - العجوز الثرية التي تعمل عندها أمي - يتمدد شعور الخجل في داخلي من مظهري الرث.. وأتذكر أنها هي من أهدتني مصحف القرآن الكريم حين علمت أنني انضممت لحلقة الحفظ ولا أملك مصحفا خاصا بي يوم اصطحبتني أمي معها إلى بيتهم..

أتذكر تلك التفاصيل التي تتلاشى وشعوري بالخجل بمجرد وقع الدراهم المعدنية اللامعة وهن يسقطنها الواحدة تلوَ الأخرى في الكيس الذي أحمله..

عادة لا أنبس بشيء.. فقط أنقر على زجاج السيارة.. بعضهم يعطيني نقودا بمجرد ما يلقي نظرة خاطفة على وجهي الشاحب وعيناي المصفرتان من الداخل.. وبعضهم لا يعطيني سوى ابتسامة لطيفة تخفي خلفها ستارا

Twitter: @ketab_n

من الشفقة.. وآخرون وما أكثرهم..! بجانب شحّهم يكيلون لي الشتائم.. دون أن أعلم مبعث غضبهم عليّ..!

وثمة وجوه تعودت عليّ كالعم صالح.. صاحب إحدى المقاهي الشعبية.. فكثيرا ما كان يربت بحنو على رأسي ويقدم لي خبزا ساخنا مدهونا بالعسل اللذيذ.. يشبه ما كانت أمي تقوم بخبزه عندما يتوفر الطحين الذي توزعه الجمعيات الخيرية غير أنها تنثر عليه سكرا عوضا عن العسل الذي تذوقته لأول مرة في مقهى العم صالح..

لكنني أمقت تلك الأيام التي يغيب فيها العم صالح وينوب عنه شقيقه سلطان.. وهو رجل ضخم البنية ووجه يميل إلى الاسمرار مع حَول في عينه اليمنى.. فكثيرا ما كان يخيفني بصوته المنذر بالشرطة إذا ما وقفت أمام المقهى..

فترتجف أوصالي من لفظة الشرطة كما لو كنت أشاهد فيلما مرعبا.. لا سيما بعد ما وقع لعادل الذي سمعت بقصته من أفواه بعض الصبية في حلقة الدرس.. أنه في أثناء قيامه لعمله في إحدى الأيام أمسك به صاحب إحدى السيارات من عنقه وسلمه للشرطة بعد ما كان يعترض طريقه في كل يوم يذهب فيه إلى دوامه الصباحي.. فزّج به في الحبس لزمن ليس بقصير وبعد خروجه أصبح يمارس عمله بحذر مساء بالقرب من دور السينما والفنادق والملاهي الليلية حيث يغدق عليه بعض السكارى..

أحيانا أتخيل كل رجل في سيارته رجل شرطة.. وكثيرا ما أحلم بهم في كوابيسي.. فتضطر أمي إلى تهدئتي.. وترى أن مبعث قلقي هي خيالاتي الفضفاضة لا أكثر..

Twitter: @ketab_n

أتعلم من أمي كثيرا وأنفّذ جل ما تطلبه مني بحذافيره.. فقد بدأت بهذه المهنة في سن مبكرة من عمرها وكانت تحملني في حضنها وأنا رضيعة.. تعبر بي من بيت إلى بيت وهي تبكي أحيانا وترتجف شفتاها في أحايين أخرى.. وكانت بعض الأبواب ترحب مشفقة وأخرى توصد بقسوة في وجوهنا.. وفي ليالي الشتاء القارسة كنت لا أكف عن البكاء حين تلفح الريح الباردة وجوهنا وتنّخر عظامنا بأسمالنا البالية.. وكانت أمي تجرني من يدي أنا وأختي حليمة..

وكنا نلتصق بعباءتها الرثة ردعا للبرد وخوفا من بعض قاطعي الطرق الذين كانوا يرشقوننا بنظراتهم الحادة.. وبعد مرور أعوام غدت كل واحدة منا تسلك طريقا تشير إليه أمي.. بعد أن تلقينا منها الدروس وبعد التدريب المكثف لأسابيع؛ كي نعتاد ونتقن المهنة..

وتلتقي ظلالنا عند نقطة الانطلاق.. فنضم أنا وأختي حليمة ما نكسبه من مال إلى كيس أمي.. وبعد إصابتها بالروماتيزم والتحاقها للعمل في بيت العمة شيخة.. أضحينا أنا وأختي حليمة نتناوب على العمل في الليل والنهار دون أن تضمنا بقعة واحدة أو التوقيت نفسه؛ لأننا نتعارك في وسط الطريق أو نتنازع على أولوية الوقوف عند سيارة ما تمرق من أمامنا..

و كنا نتشاءم من الأيام التي يتوشح أفقها بغيوم رمادية حالكة تنذر عن أمطار وعواصف حينها تتصارع السيارات للخروج بعصبية من برك الوحل في الشوارع الرملية ومن المياه الطافحة في الشوارع المعبدة.. وكنت ألّح على أمي كثيرا حتى تسمح لي بارتداء المعطف الذي يقي من المطر والبرد.. لكنها كانت تتذمر وترفض الفكرة وترى أن أحدا لن يتصّدق عليّ

Twitter: @ketab_n

بدرهم واحد؛ فالمعطف باهظ الثمن قدمته لنا العمة شيخة كان لإحدى حفيداتها وقد دهشنا أنا وأختي حليمة من ملمسه الناعم ونظافته وكأنه لم يعلق على كتف يوما ما!..

ولكن حين تصفعني الحمى وأبقى طريح الفراش لأيام يتعطل خلاله العمل.. تتذمر أمي وتردد بحسرة لأختي حليمة: **"لو أنني سمحت لها بارتداء المعطف لما نهشتها الحمى"..!**

وحين كنت استعيد صحتي كنت أشق دربي كنحلة من سيارة إلى سيارة، حرصا على تعويض أمي عن الأيام التي سقطت بها في فخ الحمى.. وكم كنت احترق من الغيرة عندما اسمع كلمات الإطراء التي تستثني بها أمي أختي حليمة لمهارتها في الكسب الوفير..!

وفي ظهيرة ما حين عدت إلى المنزل للغداء.. وضعت كل ما جمعته في كف أمي وكانت مسرورة بما كسبته في يومي فأحاطتني بالنعوت نفسها التي كانت تصف بها أختي حليمة.. وكمكافأة على نشاطي وضعت أمامي علبة عامرة بالكعك اللذيذ.. أحضرته من بيت العمة شيخة التي أقامت حفلا بمناسبة نجاح إحدى حفيداتها في المدرسة.. وطلبت مني أن أترك حصة أختي حليمة منها.. وكان منقار الجوع يثقب معدتي فالتهمت حصتي وبعدما تأخرت أختي في المجيء مددت يدي إلى قطعة أخرى من حصتها..

وعندما سمعت نقرا على الباب وضعت العلبة جانبا؛ كي لا تهجم عليّ أختي حليمة حين تعلم بأنني استوليت على قطعتها من الكعك.. ولكن القادم لم يكن أختي بل كان رجلا في ملابس الشرطة وحين رأيته اختبأت خلف أمي بخوف كي لا يراني.. كذلك غلب الهلع على أمي التي ذابت

Twitter: @ketab_n

ملامحها بمجرد رؤيته.. سأل الشرطي عن والدي فأخبرته أمي بحزن أنه متوفى.. فنقل لها الشرطي بأسى بأن أختي حليمة لحقت به بعدما دهستها شاحنة محملة بالبضائع وهي تقطع الطريق إلى إحدى السيارات في الطريق العام وقد تمزق جسدها تماما تحت الإطارات..

بعد صدمة وفاة أختي حليمة تحطمت أمي.. حاولت أن أسعدها بالكدح ليل نهار في الشوارع العامة والمحال التجارية وبين الأزقة والمساجد.. وتركت حلقات الحفظ؛ فما كنت اكسبه يفوق المبلغ أضعافا لا سيما في شهر رمضان الكريم وموسمي العيد..

وفي إحدى نوبات العمل.. انتصبت بوجهي الكسير عند إحدى السيارات الفارهة.. نوافذها كلها مطلية باللون الأسود.. مددت كفي ككل مرة غير أنني صعقت عندما وقع نظري على شابة كانت تشبه أختي حليمة ولكنها في ثياب أنيقة..

وعندما أعطاني الرجل الشبيه بالشرطي الذي أخبرنا بموتها.. رشقتني أختي بنظرات غريبة أدركت أنها تريد أن نمحوها تماما من حياتنا وأن نعدّها ميتة كما أشيع عنها..

ونسيت أمرها عندما ناولني صاحب إحدى السيارات المارقة من خلفهم عشرة دراهم.. وعندما عدت للبيت لم أخبر أمي عنها ولم أصادف سيارتهم بعد ذلك مطلقا..

٤ / ٥ / ٢٠٠٧م

Twitter: @ketab_n

الرجل الذي سيعقد قرانه عليّ

"ابتسمي"..

هكذا أشارت عليها المصورة الفلبينية بعد أن سلطت على مساحة وجهها الأضواء الكاشفة.. تبع ابتسامتها خاطر مخاتل "**ستكون الصورة هذه المرة مختلفة.. سأبدو فاتنة.. نعم.. سأبدو فاتنة**"..

وسوس داخلها بذلك.. بعدما طلبت منها المصورة أن تدير جسدها نحو اليسار وترفع كتفيها قليلا.. خضعت لها بينما حملها خيالها إلى ومضة أول صورة شخصية في حياتها.. يومها أيقظها والدها مبكرا.. كي تلتقط صورة للجواز كما فهمت من أمها وهي تنهي تمشيط شعرها..

مشيا معا إلى يمين الشارع العام بينما النوم كان يعبث بوجهها وكلتا كفيها كانتا تتناوبان على خنق تثاؤب كان يستفزها بين فينة وأخرى..

اقتعدت على كرسي مترهل الجلد بلا ظهر ولا أذرع.. ووالدها يصافح "شفيق" المصور الحي الهندي.. طلب منها أن تحدق إلى الكاميرا بشكل مستقيم.. وهو يتلو عليها بفخر وبلغته المكسرة تاريخ الصور العائلية التي التقطها باحترافية لوالدها وأمها وأخوتها الكبار بعدسته التي أكملت عشرون عاما..

وبعد مرور خمس دقائق كانوا قد استلموا الصورة..

"**ستكون الصورة هذه المرة مختلفة.. سأبدو فاتنة.. نعم.. سأبدو فاتنة**"

Twitter: @ketab_n

أكلتها الكآبة.. حين وقع نظرها على الصورة في ذلك النهار.. كانت عيناها ناعستين.. وبدت الهالات السوداء حولهما كبقعتين من القهوة المسكوبة على قميص شاحب..

طلبت منها أن تعتدل في جلستها.. وأن تشد ظهرها جيدا ثم سلطت الأشعة الضوئية ذاتها..

"تبا لشفيق.. ولأيام شفيق"..!

قذفت لعنتها في سرها له بينما يدها اليمنى كانت تسلّم العربون للمصورة الفلبينية مع ابتسامة عريضة استقرت على وجهها..

❖ ❖ ❖

لم تستطع النوم.. ظل أرق الصورة يلغّم أجواءها أطيافا من القلق.. حتى غلبها غلس طفيف.. تفقأ على ضجيج المنبه.. هرولت بعد أن غسلت وجهها وارتدت ملابسها على عجل إلى الاستديو بينما غفير من الكوابيس كان قد تسلق عقلها حتى غدا كصهريج عائم..

ولما تسلمت الصورة خفق قلبها وارتعشت حنجرتها فرحا: **"ياااااه.. أهذه أنا..؟"**

كانت بين فينة وأخرى تسترق النظر إلى الصورة وهي في طريقها إلى المنزل.. ومع كل نظرة تعقب بكلمات تغمرها فتنة **"ما أجملني"..! "لابد وأنها ستعجب الجميع".. "سينبهرن بها صديقاتي أنا أكيدة"....**

قربت الصورة إلى صدرها معانقة إياها بغبطة وهي تتذكر صديقتها منال.. **"هل يا ترى سيكون حظي كحظها؟"** منال هي أول وجه التقطتها عدسة الاستديو تلك الفلبينية.. ومن حسن حظها تقدم لخطبتها في الأسبوع نفسه شاب وسيم خفق قلبه هياما حين وقع نظره على الصورة..

Twitter: @ketab_n

"سيشاهدها الرجل الذي سيعقد قرانه عليّ.. وسيخفق قلبه كذلك"..

قالت ذلك بخفر بينما قهقه داخلها بمرح..

❖ ❖ ❖

حرصت على هندامها جيدا.. غدا وجهها أكثر امتلاء.. وعينيها أكثر انبهارا بخطوط الآي شدو تبعا للموضة الدارجة.. كثفت طبقة البودرة على حنايا وجهها وأضافت رشة من البلاشر المخملي على خديها وصبغت الشفتين المكتنزتين بلون زهري لامع..

اقتعدت على الكرسي ذاته قبل أكثر من خمس سنوات.. حتى أن المصورة الفلبينية تكتل جسدها امتلاء مغريا.. وطال شعرها الكث المنتصب حول كتفيها كشال حريري..

رعشت رعشة انبهار.. كلما تأملت الصورة..

وظل انبهارها يردد **"الرجل الذي سيعقد قرانه علي ستبهره الصورة بلا شك"**..

❖ ❖ ❖

طرأ تغيير شامل على شكل الاستديو عن آخر زيارة لها لأكثر من ثمان سنوات حتى خيّل إليها أنها في مكان مختلف.. لمست ذلك وهي تتأمل روعة الأرضية الرخامية اللامعة.. والجدران التي صقلت بورق مزركش ولكل جدار من الجدران الأربعة طابع خاص.. الأضواء غدت أكثر إشعاعا وهي تتدلى كقطوف من العنب في قاع السقف.. والمصورة الفلبينية صارت أسمن وقد ترهلت رقبتها قليلا وبدتا عينيها أكثر ضيقا كحبتي لوز..

Twitter: @ketab_n

حين تأكدت من وضع الكريم الذي يخفي آثار التجاعيد المبكرة حول العينين والفم أعلنت استعدادها للتصوير..

"الرجل الذي سيعقد قرانه علي.. ستعجبه الصورة.. نعم بلا شك"..

كانت تهتف بذلك كلما تبحلقت في تقاطيعها..

❖ ❖ ❖

كانت حركتها ثقيلة وهي تقترح عليها أن تنتقي صورة الخلفية التي تلائم ذوقها.. واللون الذي ترغب به.. الأصفر، الرمادي، الفوشي، الأخضر، الأزرق...

جعلت وجهها يواجه الكاميرا بدقة متناهية بعد أن لفت حول عنقها شالا حريريا يخفي تجعيده..

"الرجل الذي سيعقد قرانه عليّ.. ستلائمه الصورة.. نعم ستلائمه.."

كانت تؤكد ذلك وهي تتأمل تقاطيعها ملونة بطيف من الأزرق الهادئ..

❖ ❖ ❖

التقطت لها الفلبينية الجديدة الصورة بعد فارقت القديمة حياتها..

حدقت فيها بصعوبة.. ثم أمسكتها بيدها المرتعشة لتدسها مع رفيقاتها في الألبوم الضخم.. آلاف الصور على مدى ثلاثين عاما..

عيناها تنتقلان بنظارتها السميكة من صورة إلى صورة.. وروحها تطفو بنشوة أمل وهي تردد بابتسامة خاوية:

"الرجل الذي ثيعقد قرانه علي ثتعثبه الثورة.. نعم.. أنا متأكدة"..!

٩ / ٦ / ٢٠٠٦ م

Twitter: @ketab_n

العباءة

انفجرت قهقهاتها عند عتبة المحل المرأة السمينة التي حجبت جسد صاحبتها الضئيل خلفها، كان وجهها لوحة متعرقة تسيح ألوانا يصعب على المرء تحديدها بالضبط، سرعان ما انقبضت تقاطيعها، وهي تأمر بصوت غليظ صاحب المشغل أن يستعرض أحدث ما عنده من موديلات، بينما الضئيلة اقتربت صوبنا انبسطت أسارير زميلاتي وأطلقن أنفاسا مبهجة.. هتفت المزركشة بخطوط حمراء من الدانتيلا بنزق: **يبدو إنني سأغادركم اليوم، فأنا ألائمها كثيرا، بل إنني على مقاسها تماما**.. زفرت التي بمحاذاتها بمكابرة ظاهرة، وهي تتلألأ بقطع كبيرة من الكريستال منثور على جانبيها أشبه بليلة مثقوبة بنجوم براقة في آماد السماء: **أتتخطى كل هذه الأضواء المبهرة التي تفتن الأحداق لتنطفئ بك..؟!** وأضافت بسخرية: **إن فعلت فهي عمياء بلا شك..!**

وطفقت كل واحدة منهن وبضجيج واضح تعدد محاسنها باستفاضة.. وحين اقتربت الضئيلة من المتلألئة بالكريستال، يبدو أن لمعانها غشي عينيها الصغيرتين، تبدى آثاره جليا على وجهها المسحوب في الداخل، حتى عظمتا الوجنتين كانتا بارزتين، سرعان ما انفعل انبهارها منادية المرأة السمينة لتشاطرها غبطتها، ولم تمض بضع دقائق حتى خرجتا، الضئيلة حملتها معها، والسمينة أوصت تفصيلا مماثلا لها على مقاسها، بينما هي حدّجتنا بابتسامة زهو تنم عن وداع أبدي..

Twitter: @ketab_n

كنت في ركن قصيّ من النادر المرور عبره.. مع الأيام أدركت سر وجودي هنا كمسمار ثابت بينما زميلاتي كل مرة في واجهة معينة، الإنطفاء الذي يلفني كان قاتما، فأنا لا أشبههن في شيء لا كريستالات تزحف على جوانبي تبهر الفاتنات ولا شرائط ملونة تحدد خصري أو دانتيلات مزركشة تعلو أكمامي فتهيج المراهقات، وكان صاحب المشغل على مدار شهور يستجدي الداخلات علّ إحداهن تقنع بي، بينما زميلاتي كن يغادرنني واحدة بعد أخرى، وأنا باقية أرقب بخيبة الداخلات والخارجات دوني..

اذكر مرة حين وقفت بمحاذاتي سيدة تقاطيعها مأكولة من الزمن بعناية كبيرة، طفقت تتفحصني بدقة كما لو أنها تنتقي عروسا لابنها، لم اعتد على وضع كهذا عوضا عن ذلك أخجلني، حررت رقبتي من المشجب، تعامد طولي مع جسمها تماما، لكن المرأة التي كانت برفقتها أبدت امتعاضا حفر في نفسي نفقا من اليأس حين قالت لها: **دعك من هذه البالية يا جدتي، هل أنت ذاهبة لمأتم..؟**

العناكب هي الوحيدة التي شقت طريقها إليّ، بينما معظم المارات كن لا يلمحن وجودي البتة، ويبدو أني كنت تسلية الأطفال الوحيدة في المحل؛ فقد كانوا يتخذون من وقفتي المتوارية في أقصى الزاوية مخبئا وهم على ثقة بأن تقريعا لن يلاسنهم، وآخرين كانوا يمسحون خفية ما علق على أيديهم من بقايا شوكولاتة، وبما ساح على ذقونهم من لطخ الآيسكريم كما لو كنت منديلا..!

وفي يوم دنا مني صاحب المشغل بملامح قابضة، ويده القاسية انتشلتني من مكاني الذي لم أتزحزح عنه مذ أكثر من ثلاثة أشهر، ووضعني قرب

Twitter: @ketab_n

المدخل تماما بعد أن ألصق على صدري ورقة بيضاء وكتب عليها بخط كبير ما يشير إلى وضعي الراهن على ما يبدو، غير أن وجودي قرب مدخل المحل لم يغير من البؤس الذي كنت فيه شيئا، وإن تكاثف على صاحب المشغل الذي كان يتشاءم حين يراني في وجهه تماما، وهو يعدّد في كل مرة مجموع الأرباح والخسائر..

اعتدت على مكان وجودي شيئا فشيئا، فقد كنت أبدد الملل في تأمل المارة عبر الزجاج العريض والشمس تشوي وجوههم في ذهابهم وإيابهم، ولم يزعج تأملاتي سوى الرجل الضخم الذي تعودنا على زيارته مرة في كل شهر، فقد كان يدنو مني ويلصق مؤخرته الضخمة بي من الخلف ثم يدوّن أرقاما عشوائية سرعان ما يرحل بعد أن يضع ورقة في يد صاحب المشغل فيستودعه وعينيه باتساعهما على الورقة، ولكن في الأمسيات حين يضيق شبح الظلام من قبضته عليّ كانت الوحشة تتفرد بي، فلا ونيس حولي، بينما زميلاتي كل واحدة منهن تدلي على التي بمحاذاتها بريق ما كان يزين صدرها أو أكمامها..

عزمت في هذه الليلة المعتمة أن أملأ عيني الوحشة بنثار من الخيال، فأجتاز هذا السقف الذي يحبس الأنفاس كما تفعل كل واحدة منهن عادة، وصرت أتخيلني على كتف فاتنة متغطرسة وتتجول بي من حفل إلى حفل، ورفيقاتها يغبطنها على ذوق اختيارها لي.....، توقفت خواطري الحالمة عن تواردها حين انطلق بالقرب مني على حين فجأة دوّي ما، كان قويا كصوت قصف، شعرت بحرارة تزحف بالقرب من إحدى أعمدة المحل، خيّل إليّ حجم الرطوبة المكثفة في الخارج المكبلة على أنفاس الأرض بحدة

Twitter: @ketab_n

هذه الليلة حتىٰ تطالنا ألسنتها هنا، تكاثف إحساسي بالحرارة أكثر فأكثر، ووجدتني في وسط هذه الحرارة أضيء كدرة من كريستال أهيج هذا الظلام وأبدده بكلي.. فإذا به يتداعىٰ فزعا مني وأنا أتوامض خلفه بسرعة البرق، تصاعد عويل حارق من الزميلات القريبات مني، كان يجب أن أدنو منهن حتىٰ يشهدن علىٰ انبهاري في ليلتي هذه.. إنها ليلة مجدي.. وأنا أضيء، أضيء مثلهن بل أكثر، وأصوات تتقافز من قربي حتىٰ أقصىٰ المحل كأنها في سيرك.. بينما أنا سعيدة، سعيدة للغاية.. وكل ما في المحل يشاطرني غبطتي هذه المرة...

٤ / ٥ / ٢٠١٠ م

Twitter: @ketab_n

هل قابلتم فكرة السيد "رضوان"..؟

انتاب السيد "رضوان" شعور مضبب بالغرابة حين قفل راجعا من عمله في المكتب ذلك اليوم.. شعر بثقل في رأسه وكأن أحدا ما فلق دماغه بمطرقة.. عزا الأمر إلى الكابوس الذي حلم به ليلة أمس أو ربما لأن زوجته عكرت مزاج يومه بلسانها الطويل.. ولكن حين مضى أسبوع كامل وما يزال ذاك الطرق أشبه بالمطرقة يترجرج في دماغه، أحس بالقلق وطفق هذا الشعور يتنامى مع أوهام مأهولة بوساوس مما دفعه يستعجل إجراء الفحوصات اللازمة لجمجمته التي تئن أنينا شبيها بغرس مسمار صدئ في حائط صلب، لكن النتائج الايجابية قطعت حبل وساوسه التي أرعدت أيامه تلك..

مرقت الأيام والمطرقة لا تكف عن الحشرجة في دماغه، وحين اقترح عليه أحد الأصدقاء مازحا أن يخرج الفكرة التي تطرقه كل هذا الطرق من رأسه، لا يدري كيف ارتدى عبثه لباس النقاش..؟

فعلّق أحدهم بجدية عن تخمّر فكرة مضيئة في عقله لعّلها تريد أن تعبر عن نفسها، فلا يمكن لأحد منهم أن يتخطى مسألة ذكاء السيد "رضوان" الذي ينال في كل عام لقب المدير الذكي.. وأضاف آخر مشجعا بأنه طالما كان يحرز انتصارات هائلة في رقع الشطرنج.. أما أخيرهم فأذعن مذكرا إياه بالمسائل الحسابية المعقّدة التي كان يجيب عنها بذكاء خارق حين كان ما

Twitter: @ketab_n

يزال تلميذا صغيرا والتي كانت تجعل معلمه يعقد دهشته في كل مرة مقارنا إياه بأقرانه الذين كانوا يعجزون حتى عن التفكير بمعرفة قوانينها..

وبعد تداول تلك النقاشات أضحت مسألة شق الدماغ وإخراج الفكرة منها حديث لسان السيد "رضوان" في كل محفل..

وحين عزم في إحدى الأيام خلع الفكرة الحبيسة من قفص دماغه لم يتصور أن قراره هذا صار يلح عليه بمقدار ضربات المطرقة على جمجمته، رغم أن السيد "رضوان" لم يكن متأكدا من قراره، لكنها أثقلت لياليه بالأرق وتكدست نهاراته في هذيانات متواصلة.. فتعطّلت جُل أموره سوى التفكير الملّح عليه كالتنفس، وظلت خيالاته تلح بوساوس كزوبعة إعصار مدمر، فإذا كان لا يعاني من أي خلل في أوعيته الدماغية فهذا يعني أن الطرق المستمر هي لفكرة تريد أن تتحرر من دماغه الضيق إلى عالم أكثر رحابة، وحين أقنعه صوت عقله عزم أن يطرح مشكلته على الأطباء، ودار بين كّم من المتخصصين في العمليات الدماغية، فكانت النتيجة أن نعتوه بالجنون وآخرين علقوا سلوكه على هلوسات لا حقيقة لها..

نأى عنه الناس أما زوجته فكانت تبكي حظها العاثر مع زوج شارف على الجنون عاجلا أم آجلا وأبناؤه ضجروا من تصرفاته التي بدت لهم حمقاء، أما أصدقاؤه فمجالستهم له غدا ثقلا يستدعي الهروب، لاسيما حين استولت عليه فكرته الملحة التي يريد تحريرها من قمقم دماغه، أما موظفوه في العمل فكان السيد "رضوان" وفكرته تلك قفشة يتداولونها كعلكة جيئة وذهابا..

Twitter: @ketab_n

لكن السيد "رضوان" لم يلق بالا سوى لفكرته التي أراد الاحتفاظ بها وإخراجها بطريقة أو بأخرى من دماغه.. وحين اقترح عليه أحد الأطباء الذين عجزوا عن إقناعه بالاستغناء عن مسألة إخراج الفكرة بالسفر إلى اليابان؛ لأنها شعوب تعرف كيف تخرج الأفكار من الدماغ، كان هذا الاقتراح بمثابة طوق نجاة للسيد "رضوان"..

بعد أسبوع من ذلك كان السيد "رضوان" وفكرته في أرض اليابان حيث احتفى به الطبيب "يوكوهاما" وكان سعيدا بقراره.. وأكد الطبيب "يوكوهاما" بأن وظيفتهم في الحياة هو الاعتناء بالأفكار، فهم يخرجون الفكرة من الدماغ ثم يقومون بالاعتناء بها على أكمل وجه وبكافة سبل التقنية الحديثة حتى تشتد عودها وتقف على قدميها بفخر..

وبين يدي الطبيب الياباني "يوكوهاما" بنى السيد "رضوان" آمالا عريضة على فكرته.. مزهوا أنها من الأفكار النيرة والتي ستساهم في شهرته وإثراء تاريخه كأي عالم عبقري في العالم، وشاطرته أحلام اليقظة، فأغدقت عليه بسيل من الأمنيات حتى أبصر في إحدى رؤاه أن فكرته توشحت بوسام جائزة نوبل كفكرة عبقرية ساهمت في خير البشرية..

وحين انتهى الطبيب "يوكوهاما" من العملية ترقب السيد "رضوان" فكرته؛ كي يعبث بها بين يديه، وربما يعذبها بسادية كما كانت تفعل حين كانت مقيمة في عقله.. لكن الطبيب نقل له بأسى أن فكرته في أثناء العملية فرّت من يده ولا يعرف أين يمكن أن تكون..؟

ربما تتمشى في إحدى شوارع اليابان، وربما تستجمّ في إحدى قارات دول العالم..!

Twitter: @ketab_n

وعلى الرغم من أن الطرق زال تماما عن جمجمة السيد "رضوان" إلا أنه ظل مذ ذلك اليوم يبحث عن فكرته من بلد إلى آخر ومازال بحثه إلى اليوم مستمر..!

٦ / ٥ / ٢٠٠٩م

Twitter: @ketab_n

كُـرَة

تعّود أن يغسل غلس الليل عن عينيه قبل أن يقطع ضجيج المنبه أنفاس زوجته التي لن تتوارى في قذف حمم تذمرها في وجهه إن تخلل أذنيها خشخشة ما يعكر بياتها، بأطراف أصابعه يدخل الحمام.. يأخذ دُشّا مستعجلا.. يرتدي ملابسه كرجل إطفاء نُبه بإنذار حريق.. وعندما يدير مقبض الغرفة يرى ورقة ملصوقة تتدلى راقصة مع هواء التكييف على الباب.. (لابد أن زوجته تذكرت أشياء لم تسعها إخباره بها في الليل بينما هو يهمد في نوم عميق بعد العشاء مباشرة).. يثبت النظارة على عينيه ويقرّب بكفيه الورقة منهما.. ويقرأ: (**لا تنس أن تحوّل إلى حسابي مبلغ عشرة آلاف درهم لوازم شراء حاجيات السفر... ولدك حمد فصله المدير، اذهب إلى المدرسة وانظر في الأمر.. الخادمة فاجأتنا البارحة بقرار زواجها من سائق جيراننا وقررت تسفيرها.. الخ**) يضع الورقة في جيبه.. يتوجه إلى البنك يسأل عن تحويل المبلغ.. يأمره موظف الشاب أن يذيل توقيعه أسفل السند.. يهمس: **حاضر**..

ينتهي من الأمر سريعا.. يسلك السائق طريق مدرسة ابنه ويقول إن المدام هي التي أمرت بذلك.. لا يعترض.. تربض السيارة عند باب المدرسة.. المكان هادئ كمقبرة والطلاب في الفصول.. يسأل الحارس عن المدير.. يشرح له الطريق بإشارات من يديه.. يجد نفسه بعد أن تصبب عرقه

Twitter: @ketab_n

في مقابل مكتب المدير.. يدق دقات خفيفة، يأمره المدير بالدخول يلقي تحيته ويهلل به، وبمجرد همسه باسم ابنه تفقأ مرارة المدير ويعلن زاعقا: (**لا تذكر اسم هذا البليد أمامي.. لا أريد أن ينطق أحد ما باسمه هنا.. لا أريد أن أراه...**) يقف كعمود كهرباء محملقا في عضلات وجه المدير وهي تتقلص وترتخي وفق نبرة الكلمة التي يقذفها على مسامعه.. يتردد ثم يستفسر عن السبب بهدوء.. يضاعف المدير الصاع صاعين رافعا نبرته الخشنة في أن ابنه غير ملتزم بدوامه المدرسي.. مضيفا بنزق بأنه كسر أنف معلم الفيزياء وتسبب في دخوله المشفى.. متبعا ذلك بتهديده لكافة أعضاء هيئة التدريس.. وعلى حين فجأة ينساب رنين الهاتف قاطعا نبرة الشجار، يهمد كلاهما لبرهة.. يرفع المدير السماعة التي تقع على جانب الأيمن من المكتب.. يلاحظ أن نبرته لانت كثيرا وملامحه تبدلت من شيطان إلى ملائكة.. يسحب نفسه كظل بينما قهقهات المدير تملأ المكان صخبا وفي داخله يقين أن ابنه لن يلمس بقدميه ساحة المدرسة التي يخطو عليها هو بقدميه خارجا.. يأخذه السائق إلى محل عمله.. يحيّيه العاملون.. يسأله أحدهم: (شاي)..؟ لا يمانع.. وهو يتابع المرأة في ركن المحل تفاصل العامل في حقيبة يدوية بينما هو يراوغ.. يرمقه العامل من على بعد.. يفهم.. يومئ برأسه موافقا.. تخرج المرأة مع ابتسامة رضا تستقر على شفتيها المكتنزتين.. تناهى إليه صوت هاتفه النقال.. يحاول أن يتعرف على الرقم.. تذكر أن نظارته في السيارة.. يجيب.. يتدفق صوت أمه كشلال.. تقول إنها ترغب في مقابلته توا.. ثمة أمور تريد أن تناقشها معه.. يذهب إليها.. أمه امرأة كسيحة.. وتعيش بمفردها مذ توفي والده قبل خمس سنوات.. قبل أن

Twitter: @ketab_n

يدخل عليها.. تستقبله الخادمة بوجه مكفهر.. ملقية سيل شكواها على أمه التي أضحت عصبية جدا في الآونة الأخيرة.. حتى جيرانها وصديقاتها ما عدن يتحملن طبعها السمج.. تبكي وتولول لولا ستة بطون مسئولة عن إطعامهم وكسوتهم لما تحملت ذلك مطلقا.. يضعف قلبه أمام نحيبها.. كاد أن يشاركها لولا صوت أمه تهتف باسمه من الداخل.. يهرع إليها.. يمرغ شفتيه على رأسها تقبيلا.. تأمره بالجلوس.. تقول له إنها وجدت له امرأة تستحق طيبة قلبه وكرمه.. يعلم أن أمه لا تطيق زوجته.. متابعة بعصبية أن زوجته المتكبرة لا تستحق المعاشرة.. لا تستحق سوى الضرب والركل ليل نهار كي تتأدب وتكف عن غطرستها.. قاذفة في وجهه نبرة ذات معنى: (كن رجلا، يا بني، كن رجلا) فيهمس لها مسحوب الملامح:(كما تأمرين..)..

لا تكف عن شكواها.. وسيل تفاصيلها.. يودعها بعد ساعتين حين يتأكد من صوت شخيرها.. فهي كالأطفال.. الكلام يتعبها، تثرثر كثيرا ثم تغفو أثناء حديثها.. وقبل أن يغادر المنزل، يضع في يد الخادمة مبلغا من المال موصيا إياها بالصبر والتحمل.. حين يستعد لصعود السيارة يقول له السائق أنه مضطر أن يتركه حيث هو؛ لأن المدام استعجلته في مشوار.. ينصاع لذلك.. يرى أنها فرصه كي يتمشى قليلا في المنطقة.. يصادف في طريقه قطيعا من الأبقار يخطون كظل مرتجف خلف ثور ضخم له قرنين حادين، كاد أن يصطدم برجل عريض الكتفين وهو يتلفت نحوهم.. يصرخ الرجل في وجهه بغضب آمرا إياه بالحذر.. يدهشه غضب الرجل ويتابع طريقه بلا تعليق.. يجد على يمينه جوقة من الأطفال يتراكضون

Twitter: @ketab_n

خلف كرة.. يتصايحون بحماس.. أقدامهم تلهث خلفها.. قذفا.. ركلا.. والكرة ملطخة بالوحل.. إحدى الأقدام تركل الكرة بقوة مخرجا إياها عن طورها.. ترتفع لأعلى.. ثم ترتطم قرب قدميه.. ترتفع الأصوات حاثا إياه على الركل.. يَهّم بذلك.. شخّصت أنظار الأطفال إلى قدميه والكرة.. يأخذ وضع استعداد.. يعلم أن الأطفال متحمسون.. يشاطرهم حماسهم... وحين هّمت أنفاسه بحماس للركل وجد قدمه تركل في الفراغ.. بينما قطة تتدحرج مع الكرة إلى الملعب.. يعود الأطفال إلى الجري خلف الكرة، بينما هو يلتفت إلى الجانب الآخر من الشارع ويجد نفسه أمام سائق تاكسي..

٢ / ٧ / ٢٠٠٩م

Twitter: @ketab_n

من ابتلع الأصوات..؟!

"أين تذهب الأصوات؟ أين تذهب
الأصوات التي لا يسمعها أحد؟"..

سركون بولص

1

كانت الدندنات التي قذفت صخبها في أذنيه أقوى من أن تُنبه شروده على صوت الحافلة التي صدمته ببوقها حين رفع رأسه الذي كان منكسا في خيال الموسيقا..!

تسارعت إحدى يديه إلى حشر الجهاز الصغير في جيبه ورفع الحقيبة التي كانت مرمية بين قدميه على ظهره، صعد بخطوات متأففة الحافلة تاركا جسده السمين يغطس في مقعد رث بمحاذاة النافذة، غيبت معظم المناظر الخارجية بعبارات بذيئة خربشها طلاب أشقياء، وحين مضت بهم العلبة الصفراء المستطيلة تأكد من وضعية السماعتين في ثقب أذنيه بعد أن شتته - نهيق الحمار- أي بوق الحافلة كما ينعته عادة حين يكون حانقا..!

ضحك من بلاهة التشبيه واسترخى مع دندنة الأغنية التي غطت على أصوات أولاد النشاز المتعاركين كالعادة..

Twitter: @ketab_n

2

جرّ الحقيبة الثقيلة التي كانت تعكر صفو مشواره من الحافلة إلى الفصل أو من الفصل إلى الحافلة رفع من صوت الجهاز الصغير الذي لا يكتفي بحجب بلادة الشمس عن وجهه الأسمر بل كانت تقيه أيضا عن لوثة أصوات المزعجة لعجلات حقائب المدرسية لحظة اصطدامها بإسفلت المبلط "انترلوك" وبمجرد ما يلقي جسده المتكتل باللحم الذي ازداد وزنه كثيرا في الآونة الأخيرة ليس لأنه طفق يكبر كمراهق كما كذبت أمه عليه، بل كما صدمه أحد أصدقائه حين نعته لأول مرة بالبدين الذي يشبه قمامة ملأى بشتى أنواع الأطعمة فهو لا يزحزح عجيزته اللاصقة عن كل أرض صلبة مذ ولدته أمه..!

رفع صوت الأغنية أكثر حين ازدحمت الحافلة بغطيط الأصوات المندفعة وأسدل جفونه وتنفس بعمق وما هي سوى دقائق حتى خمدت صوت الأغنية المدندنة، اعتقد لوهلة أن العيب في شاحن الجهاز **"ربما فرغت بطاريته"** قال لنفسه..!

ولكن حين بددت صحة البطارية التهمة عن نفسها جال انتباهه إلى السماعتين ووجدهما في مكانهما، وللحظة قبل أن يدرك ما يجري حوله رفع رأسه، فإذا بأيد وأرجل في اشتباكات كما عهدها في كل يوم وهم في طريق ذهابهم وإيابهم من وإلى المدرسة، هذا يقذف ذاك وآخر يحرك فمه بعصبية واضحة وتتقلص تقاطيع وجهه تبعا لقوة ما يقذفه من نبرات..

Twitter: @ketab_n

حدق في الوجوه العابسة والدامعة التي فغرت أفواهها على اتساع تلعن وتقذف وتسب وأخرى تبصق وبعضها يسيل دما.. اختزل عراك المشاهد في عينيه وللحظة قبضه شعور بالانهيار فهرس أجزاء الجهاز الصغير تحت قدميه بعد أن تعطّل دون سبب واضح..

3

في البيت لم تكن أمه هناك وهي التي أخطرته ليلة البارحة بأنها ستغيب لمدة أسبوع مع والده إلى مكان لم يعرفه ولم يبال أن يحيط به، وضعت الخادمة كما هي العادة وجبة غدائه على طاولة الطعام قبل أن تستلم حقيبته الثقيلة وتضعها في غرفته، بينما مدد هو رجليه على الكنبة المريحة وصحن الغداء في إحدى يديه والأخرى ضغط بها على الريموت فانفتح التلفاز عن آخر فيلم كرتون شاهده قبل أن يذهب إلى المدرسة، قلّب في القنوات وحين استقر مزاجه على أحدها ضغط على آخر أنفاس الصوت بتأفف واضح حتى أن الخادمة هرعت إليه مفزوعة ووقفت أمامه تشير بكليتا يديها وكامل حواسها بينما كشرت ملامحه ورمى بحنق الريموت على وجهها لولا أنه أخطأها ليصطدم بالجدار ويتحطم وتبرز أحشاؤه وهو يصيح فيها: **"سحقا لك ولهذا التلفاز الذي بلع أصواته!"**..

بينما الخادمة كانت على الأرض منهارة ويدها على أذنيها..!

4

في الفصل أثناء حصة الرياضيات دنا منه المعلم يهزه بعد أن لم يحر جوابا منه حين هتف باسمه، حملق لوهلة في وجه المعلم الذي لم يسبق أن اقترب

Twitter: @ketab_n

منه ناهيك عن هز كتفه بتلك الصورة، وكان واضحا أن علامات الشر لم تكتف أن تملأ حدقتيه، بل إن فمه كان يرقص بطريقة مضحكة للغاية.. يفتح.. يغلق.. يعبس.. يصرخ.. **"فمه فاغر كمغنية أوبرا التي كنت أعشق صرخاتها... ماذا كان اسمهاا يا ترى..؟"** دفعه ذلك إلى الضحك بصوت خفيض سرعان ما علت موجة الضحك إلى قهقهات صاخبة، بينما جمد المعلم محمر الوجه كطماطم في مكانه والتلاميذ ما بين مندهشين ومذعورين من هستيريا ضحكاته، ظل يضحك حتى حين قذفه المعلم إلى خارج الفصل، وحين اصطدم جسده البدين بأحد الأعمدة لملم شتات ضحكاته في هيئة لعنة فجرها في وجه المعلم، التلاميذ، هيئة التدريس، والمدرسة، بل وزارة التربية والتعليم وكل الذين اخترعوا هذا النوع من التعليم الأخرس..!

5

غاضب من البيت والمدرسة وكل بقعة وطأها حتى اللحظة.. ردد بين جدران نفسه: **"ربما التسكع في شارع أبكم أفضل حالا من أي مكان آخر فيه بشر نعرفهم ويعرفوننا"..!**

لم يكن من النوع الذي تثيره ما تعرضه المحال المتنوعة من معروضات، لم يكن يستوقفه عادة أي وجه من وجوه البشر العابرين، ربما نبت في قاعه شعور بالاشمئزاز في التعاطي مع البشر مذ سمع مشادة كلامية بين والده وآخر لا يعرفه عبر الهاتف حين صرخ بأعلى صوت من خزينة حنجرته

Twitter: @ketab_n

الصوتية: "سحقا لك.. وسحقا لكم أيها الملاعين، منذ متى كنت أو كانوا يقتربون مني سوى لمصالحهم.. لحاجتهم لي..؟!"

ذاك الهياج الحيواني من والده سرعان ما تسلل إليه، فيحدث أن يركل قطة تدنو بوداعة عند قدميه أو حتى يرمي بحجر عصفورا حط على نافذته.. "كلهم.. لا يدنون منك سوى لغاية في أنفسهم.. سحقا لكم جميعا..!" فما كاد يكمل سلسلة لعناته على العالم حتى انتبه على سيدة غريبة تطوح بكلتا يديها له في الجهة الأخرى من الشارع.. ظلت السيدة تلوح وعلى وجهها تعبير لم يبال به.. فمنذ متى كان يلقي بالا بالآخرين..؟!

خاطب نفسه بنزق: "لا بد أنها متسولة وستسلب مني حتى آخر قرش املكه.. تبا لهؤلاء اللصوص الأغبياء.. دعيني فقط اقترب منك يا - بنت اللذين - كي ألقنك درسا لن تنسيه في حياتك.. هاااا.. تعتقد أني صغير.. فقط دعي هذه المسافات تقربني صوبك... يالوقاحتها حتى أنها لا تكتفي بأن تطوّح بكلتا يديها كي تلفت انتباهي بل وتضعهما على عينيها يا للسذاجة، من تظن نفسها هذه العجوز الشمطاء..؟!"

6

تجمهر الناس حول الجثة المهشمة وأصواتهم المزدحمة بالأسى تحوقل، وواحد يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون".. وصوت ثان يضرب كفا بكف: "يا الله الموت حق.. فتى في ربيعه أخذته وأنا عجوز في خريفه ما أزال طامعا في مزيد من العمر.. استغفر الله!"..

Twitter: @ketab_n

وصوت ثالث في نبرتها نشيج حار: **"يا حرام، ابني في مثل عمره.. يا لطيف ألطف..!"** وصوت رابع وخامس.. عاشر...

ووحده صوت سائق الشاحنة الذي هرس عظامه تحت عجلاته الكبيرة يردد: **"يا ويلي، والله كنت أزمّر له حين فقدت السيطرة على الشاحنة التي خرجت عن طوعها.. ويشهد الله على ذلك.. أنا بريء يا جماعة.... بريء..."**..

٥ / ٢ / ٢٠١٣م

Twitter: @ketab_n

حلومي*

وفد رجل من البادية إلى إحدى المدن لحاجة له، وحينما طفق الجوع يثقب معدته، عرج إلى أقرب مطعم، فأطرق جالسا في أحد المقاعد وهو يفكر في وجبة تشبع نهمه..

وتصادف أن دخل رجل المطعم ورفع صوته آمرا للعامل: **حلومي..**

ثم دخل آخر وقال مثلما قال الأول: **حلومي، من فضلك..**

التفت الرجل الوافد من البادية إليهما بعجب، ثم طفق يخاطب نفسه: **حقا، كما وصف لي، إن المدن تمطر نساء، لكني لم أتوقع إمكانية طلبها في كل مكان، يا عيني على الحياة هنا، إذن لأطلب حلومي كما - يدلعونها - أنا الآخر، ثم سأطلب وليمة زاخرة على شرفها؛ كي أكبر في عينيهما الغانيتين الذين لم أبحلق بهما بعد..** فرفع الرجل صوته باعتزاز: **حلومي يا ولد، على السريع..**

جاء العامل وهو يحمل صينية عليها الطلبات، ووضع أمام كل واحد منهم طلبه، حينما رأى الرجل الوافد من البادية سلوك العامل قفل صوت نفسه يقول: **يا سلام، ولا كرم حاتم الطائي، حقا إن الحياة في المدينة فخفخة وعز..**

---

* حلومي أو حلوم: نوع من الجبنة..

Twitter: @ketab_n

غادر الرجل الأول ومن ثم الثاني، ورغم اندهاش الوافد من البادية من مغادرتهما إلا أنه قال في نفسه: **هكذا أفضل؛ كي أستأثر حلومي لي وحدي، لكن، لماذا تأخرت يا ترى..؟!**

ولما أخذ الفضول يلعب في عبّه، قرر أن يعيد طلبه مرة أخرىٰ كي يذكّر العامل: **حلومي، لو سمحت..**

وضع العامل أمامه الطلب، وعندما رأىٰ الوافد من البادية ما رأىٰ قال في نفسه: **أمري لله، سأنتظر..**

مرت نصف ساعة، وطفح الكيل بالوافد من البادية في انتظار حلومي، بينما العامل في كل مرة يسكت انتظاره بتلك الشطائر، عزم هذه المرة أن يستفسر عن موعد حضورها بالتحديد، فنادىٰ العامل مخاطبا إياه: **يا ولدي، ألا ترى أنني وافد من مكان بعيد، عجّل بطلب حلومي رجاء، فأكحل عيني برؤيتها قبل أن أرحل إلى البادية..**

لم يفهم العامل ما يعنيه، غير أنه وضّح له قائلا: **لكنني أحضرت كل طلباتك يا عم، ألم تلتهم معدتك أكثر من عشرين قطعة منها..؟!**

رد عليه الرجل الوافد من البادية بحنق: **ماذا تقول، إنني حتى لم أشم رائحتها حتى ألتهم منها كل تلك القطع يا ظالم..؟!**

فارتفع صوت العراك بين الرجل الوافد من البادية والعامل، وانتهىٰ بطرد الرجل الوافد من المطعم بعد أن دفع ثمن كل الشطائر التي تناولها..!

٣ / ٤ / ٢٠١١م

Twitter: @ketab_n

يوم في الحياة

كان واثقا إنه في يوم عطلة، فاستيقاظه في الثامنة يشير إلى ذلك، وقيلولة السيارات في الخارج دليل آخر، غير أن ذلك لم يقنعه بالشكل الجيد، فهو يحب سماعها برنة ذاك التدرج التثاؤبي الذي يزين فم الحارس وهو يطلق نبراته، تهندم جيدا كعادته ثم اتجه رأسا إلى العمل، وحده الحارس تبرعم أمامه كنبتة مرتعدة من البرد لا حياة فيها، ودون كلمة منه أخذ يصب ألفاظه تدريجيا بتثاؤبات أشبه بحركات بهلواني على حبل متدل بين السماء والأرض: سيدي (تثاؤب) اليوم (تثاؤب) هو يوم (تثاؤب) عطلتك (تثاؤب) والمؤسسة فارغة (تثاؤب) حتى من الفئران (تثاؤب) الغاطسة في نومها (تثاؤب) في (تثاؤب) هذا (تثاؤب) النهار (تثاؤب) الشتو (تثاؤب) ي.. وحين يصل لمرحلة يقطع فيها التثاؤب حروف الكلمات يدرك حينها أنه غطس في نوم ثقيل، ويتركه وهو يشخر..

وحين ولج داره كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، ولم ير فطوره على الطاولة ولربما حارس البناية أتى وطرق بابه ولم يجد أحدا، أومأ إلى أجندته الموضوعة بالقرب من سريره: **"اليوم هو التاسع من فبراير.. يوم شتوي، لا يحلم فيه المرء سوى بفراش دافئ، وكوب من الشاي الحار، وموقد يحكي لنا ناره حكاية اشتعاله.."** ثم طفق مسترسلا مع نفسه وهو على الكنبة الواطئة بمحاذاة المدفئة: **"لكنه دون شك يوم غير عادي لشخص ما في هذا العالم، أجل، أكاد أجزم بذلك، رغم أن جزمي هذا لا يؤكد**

Twitter: @ketab_n

معرفته بالشخص المعني، فهو في نهاية الأمر شخص من هذا العالم، قد يكون جاري، أو جار جاري، أو شخص من البلدة أو من البلدة المجاورة، أو من الوطن نفسه أو من وطن آخر، أو من قارة مجاورة أو ربما قارة بعيدة عنا"..

ثم طفقت ذاكرته تحصي أولئك المعنيين بهذا اليوم:

1 ـ قد يكون يوم ميلاده، وكيف للمرء أن ينسى يوم ميلاده، هو يوم في السنة، يكبر مع الأيام ولكنه لا ينس قط..؟

2 ـ ولربما يوم زواجه، وهذا اليوم كذلك لا يسقط من الذاكرة، وقد يتدفق بين شعورين، شعور المرء كونه في جنة الفردوس، أو شعوره كونه في نار جهنم، وكلا الشعورين لا ينسيان على ما يبدو..

3 ـ الأكثر روعة إن كان اليوم الذي شعر فيه بلهيب الحب، فالتقى بتلك المرأة التي قلبت حياته رأسا على عقب..

4 ـ لكن ماذا لو في مثل هذا اليوم، أصبح مديرا، كم هو شعور مليء بالفخر، وإن غدا رئيس دولة، فإنه شعور فوق التصور، بل يوم يكتب له الخلود..؟

5 ـ لربما هو يوم محزن، من يدري؟ وحده الله يعلم.. قد يكون فارق والدته في مثل هذا اليوم أو والده، على افتراض إنهما لم يموتا معا، وهذا حزن لا يحتمل بالتأكيد.. وقد يكون الميت قريبا له، زوجته، ابنه، ابنته، ابن عم، ابن خال.. لكن فراق الوالدين هو الأشقى دائما ولا ينس..

6 ـ بل لعله يوم مشحون بالسوء في سجل حياته كلها، ولم لا يكون هذا الشخص مجرما، اقترف جريمة جناية، فزج في هذا اليوم تحديدا إلى السجن، وربما اقتيد إلى الإعدام، وهو أقصى ما يستحقه مجرم مثله..

Twitter: @ketab_n

7 ـ وقد يكون ألما من نوع آخر، فهذا الشخص في مثل هذا اليوم طرد من الجامعة؛ لأنه تعارك مع أستاذه أو وجه إليه كلمة نابية، وما أكثر ما يتكرر شيء مثل هذا، وربما بسبب هذا الطرد غدا شحاذا في الشارع، أو سارقا، وها هو يعيش على الحرام، كم هو مخز هذا الأمر..؟!

8 ـ لكن الإنسان أيضا يكبر، قد يكون هذا الشخص بلغ من الكبر عتيا، وفي هذا اليوم قد يفارق العالم كله ويكون في عداد الموتى، فالموت يزورنا فجأة، من منا يعلم في أي يوم تقبض روحه..؟

9 ـ ماذا لو كنت أنا المعني بهذا اليوم تحديدا وحدث لي التالي طبقا لرواية المؤلف:

(طق.. طق.. طق.. دقات الباب أربكت خواطره التي انثالت عليه كما ينثال الثلج على الأشجار من نافذته، لكنه يعرف تلك الطرقات جيدا، فقد اعتاد على تلك الطقطقات الراقصة التي تنساب بهدوء من أصابع حارس البناية اللطيف، بينما اليد الأخرى تحمل صينية فطوره، حينما فتح الباب وجد أمامه كما توقع تماما حارس البناية، لكنه لم يجد في يده صينية الفطور هذه المرة، وكان شيء ما يستلقي في وجهه وهو يقول له:

- سيدي..

- نعم..

قال له بذلك الشعور المستلقي في وجهه:

- هناك من ينتظرك..؟

رد عليه بدهشة كبيرة:

- أووه، حقا، أنا، جميل، هيا ادخله سريعا..؟

Twitter: @ketab_n

- حسن يا سيدي، لكنه...

قاطعه بلهفة:

- هيا، لا داعي لأن ينتظر أكثر من ذلك، كما تعلم الجو بارد جدا في الخارج..

ذهب حارس البناية، بينما تريث هو عند الباب يضرب أخماسا بأسداس، تناهى إليه ارتقاء قدمي حارس البناية على درجات السلم، وحين انتصب أمامه، وجد يده تسترخي في يد صبي صغير هزيل، قرابة الخامسة من عمره، وحين وقع نظر الصبي عليه وهو متسمر كالخشب عند الباب دنا منه ثم أمسك ببنطاله مخاطبا إياه ببراءة مطلقة: بابا..)

10 ـ كاتب هذه القصة هو من روى قصتي الخيالية مع الصبي؛ كي يكون يوما في حياتي.

11 ـ لم لا يكون الذي سرد لكم تلك الأحداث، هو المعني بهذا اليوم..؟

12 ـ .....

ما رأيك في أن تملأ السطر الفارغ أعلاه باعتقادك..؟

Twitter: @ketab_n

بورخيس = بورخيص

كنا اثنتين، أنا وعمتي حين دنونا من البائع، كان شابا صغيرا ربما في السادسة عشر من عمره، رمقنا بنظرة تومئ بالشك ولا ألومه عليها، فكتبه مكتظة على بعضها في هذا الحيز من الرصيف، الذي يطل شرفتي عليه ما يربو عن عام كامل، فمعظم العابرين كانوا عادة يتصفحون الكتاب في حينه دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة اقتنائه..

عمتي توجهت صوب مجلات الأناقة والمطبخ المعلقة على سلال حديدية صدأت أطرافها بفعل حمام الشمس اليومي، بينما راقتني بعض روايات رومانسية بعناوين مغرية، فوقع اختياري على ثلاث منها، وحينما كنت وعمتي ننقد البائع لمحت كتابا ضئيل الحجم، يتوسط غلافه صورة وجه مكلل بالكآبة حرك فضولي كقارئة فأشرت إليه حيث كان على مقربة منه، ظل يبحث دون أن يهتدي إلى موضعه بين كومة الكتب الضخمة المكتظة حوله بفوضوية..

قرأت له اسم الكاتب كما لمحته عن بُعد المسافة بيننا: **بورخيس**..

ردّ عليّ بصوته الضئيل من خلف ظهره، بينما يداه تفتشان عنه: **أكيد راح أراعيك بالسعر ولو - تكرم عينك - كل بضاعتنا بورخيص*..!**

٧ / ٣ / ٢٠٠٧م

---

* "بورخيص": أي شيء ثمنه رخيص.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صائد الفئران

كنا نحن الصغار ننعته بعثمان الطويل عاشق الفئران، لكن الكبار من أهالي القرية كانوا ينادونه بصائد الفئران، فقد كان عثمان صبيا نحيفا كالخيزران بقدمين مفلطحتين وأذنين كبيرتين كأذني فيل، ووالده كثيرا ما كان يضّخه بتأنيبات شديدة، ومن بين الأقوال التي كان يرددها مرارا على مسامعنا، وهو يسحبه كحبل من تلابيبه من أحد منافذ الفئران في القرية: **"متى ستكون نافعا يا صاحب أذنين كبيرتين كأذني فيل لا يصلحان سوى لهش البعوض"..؟**

بينما عثمان لم يكن يأبه بكل ما يجري حوله، فقد استملك لبّه مطاردة الفئران في الحارات، حتى أن أصحاب تلك الحارات حين كانوا يصادفون أبيه عابرا في الطريق يبصقون في حضرته تعليقاتهم السمجة فحينا يقولون: **"يبدو أن الله بعث عثمان مخلّصا للعالم من الطاعون"** وتتعالى قهقهات المارة في الطريق، بينما آخرون كانوا يطلبون منه بوقاحة ظاهرة إرسال عثمان إليهم؛ كي ينظف بيوتهم من الفئران..

لم يتمالك أبا عثمان نفسه، وقد كان رجلا محترما تلك الشرارات اللفظية التي كانت تضاعف من حنقه على عثمان، وفي نهار قائظ توجه إليه حيث كان مرابطا عند أحد الجحور يتصيد فئرانه، فسحبه بشدة ولعانه يتطاير في الهواء مع رذاذه ضاربا عرض الحائط وبقلب من حجر صرخاته المتتالية، ثم

Twitter: @ketab_n

قذف به تحت قدمين ضخمتين ذا رائحتين كريهتين كانتا قدمي شمشون طباخ الجيش، أخذ والده يتصّعد مديحا ورجاء به؛ كي يجد عملا لعثمان في صفوف الجيش، وكان على إيمان تام بأن عثمان إن عمل زبالا لمخلفات الجنود في الجيش خير له من أن يموت غيظا على يده هو يطارد الفئران من مكان إلى آخر..

كان شمشون على قناعة بأن عثمان لا يصلح سوى لمطاردة الفئران، بعد أن لفظته مقاعد الدراسة للثغة في لسانه، كما أن بنيته الجسمانية لا تنم عن أي قدرة، لكنه قطع وعدا يسيل منه شفقة لأبي عثمان أن يحدث المسئولين عنه..

مضى أسبوع بسبعة لياليه، وفي الليلة الثامنة انتصب شمشون على رأس عثمان وألقى عليه ملابسا كالتي يرتديها مشيرا إلى أنه من اليوم سيعمل غسالا للصحون في مطبخ الجيش، قال شمشون ذلك بفخر كبير بينما يده اليمنى تمسّد لحيته الكثيفة، لكن أبا عثمان لم يتحمل صعقة الخبر السعيد، فانتابته نوبة مفاجئة توقفت دقات قلبه إثرها عن الحياة..

كانت الملابس التي ألقاها عثمان على كتلته الضئيلة فضفاضة عليه، والبنطال كان قصيرا فبرز الجزء الأسفل عن ساقين نحيفتين مشعرتين موصلتين إلى قدمين مفلطحتين فغدا بتكوينه ذاك نكتة تعلكها ألسنة الجنود حين كانوا يصادفونه عابرا وهو يجمع الصحون القذرة بمخلفات الطعام دون أن يغفلوا أذنيه الكبيرتين كأذني فيل عن تعليقاتهم، ولم يكن من عادته أن يبالي بما يتسقط حوله من تعليقات، فقد كان منشغلا طوال اليوم في جمع وتنظيف آلاف الصحون والملاعق والسكاكين التي كانت أعدادها تساوي أعداد بطون البشرية خلف تلك المقاعد..

Twitter: @ketab_n

وفي مساء شتوي حين توجه كعادته للم الصحون القذرة عن مقاعد الجنود في قاعة الطعام العريضة المكتظة بأنفاس مختلطة، تناهى إلى سمعه مخاوف كان الجنود يتداولونها فيما بينهم عن مناورة خطيرة سيقومون بها، وإن فشلوا في معرفة مكان وخطط العدو هذه المرة فإن هزيمتهم ستكون نكراء، وحين مرّ عثمان بالقرب منهم ليكوّم صحونهم الوسخة في جوف صندوق ضخم يجره بالحمالة خلفه علّق بقوله دون أن يحول عينيه عن عمله بأن يحاصروهم من جهة الجنوب ثم يغيروا عليهم هجمة رجل واحد..

سكت الجنود وكأن هامة سقطت على رؤوسهم، ولكنهم لم يملكوا رغم الدهشة المعقودة سوى أن يحملوا كلامه على محمل التنفيذ، وحين فعلوا حققوا نصرا كاسحا على الأعداء الذين سقطوا صرعى واحدا بعد آخر..

تبدلت نظرة الجنود بعد هذه الحادثة إلى عثمان، وكفّت تعليقاتهم السمجة عن قدميه المفلطحتين، ومع الأيام لم يتواروا عن مشورته بين الحين والحين على استحياء في بعض الغارات التي كانوا يحققون فيها انتصارات مؤزرة، وحين تداول اسم عثمان إلى أصحاب الأكتاف المحملة بالنجوم وعرفوا أن صاحب هذه الخطط الفذة مجرد غسّال صحون في مطبخ الجيش، أصدروا أوامرهم من فورهم، فرفع إلى رتبة جندي في صفوف الجيش، ومن هنا أصبح عثمان يلقي كل مرة عليهم نابل خططه التي لا يسفر عنها سوى نجاحات ساحقة، وحين كان الجنود والضباط في الجيش يستفسرون منه عن سره في ذلك، كان جوابه يستقيم في ابتسامة غامضة لا

Twitter: @ketab_n

تمس ملامح وجهه القابضة التي يسترخي فيها عادة صمت دفين، أما السامعون فكانوا يتحيرون من طريقته الغريبة في تعليل نجاحه..

و للانتصارات التي أحرزها الجيش بفضل عثمان، منح إجازة قصيرة، فأعد حقيبته وغّذ خطاه رأسا إلى قريته التي ما إن سمعت بعودة عثمان بعد سنتين من غيابه، حتى تقاطروا عليه وأعينهم عن قرب تتآكله وكأنه نجم ساقط من السماء، ولم يصدقوا بأنه ذات الصبي رثّ الثياب المطارد للفئران من مكان إلى آخر كقط شرّه..!

أضحى عثمان صاحب وجاهة في القرية، حتى أن أبا يوسف وهو أكبر تاجر في القرية عرض عليه خطبة ابنته، وبارك كل من في القرية هذه الخطبة، وفي ليلة من الليالي حين كان عثمان جالسا رديف خطيبته حاول أن يقبّلها، وحين استجابت له بلا مراوغة تصاعد بركان الغضب في رأسه ففسخ الخطبة وسط هول الجميع..

وبعد يومين من هذه الواقعة شج رأس أخيه الصغير؛ لأنه وجد في حوزته نقودا، وحين صادف أخته رابطة قرب الباب لم يتمالك نفسه فركلها حتى جمد الدم في عروقها، فتعاقبت بعد ذلك سلسلة اعتداءات عثمان في أرجاء القرية، حتى وجد نفسه متمثلا في حضرة القضاء، وبعد جلسات ومفاوضات تقرر الطب النفسي بأن عثمان يعاني من أزمة شك غريبة لدرجة أنه يشك في الذبابة التي تطن فوق رأسه، ولكنهم رضخوا لإطلاق سبيله؛ لأن شكه هو وراء الانتصارات الساحقة التي أحرزها قوات الجيش ضد العدو..

Twitter: @ketab_n

استمرت صولات وجولات عثمان في صفوف الجيش، وهو في كل انتصار ينتقل من رتبة إلى أعلى.. وفي يوم من الأيام توجه إلى قريته، ورأى قرب إحدى الأشجار أمه تدخن أرجيلة غير التي تعّود أن يراها معها، ومن فوره انطلقت طلقة ناقمة من فم مسدسه واستقرت في رأسها، وحين علم أنها مستعارة من جارة قريبة، طفح بعثمان الكيل فعزم أن يقطع شكه نهائيا بمقص اليقين، ولكنه سّرح نتيجة ذلك نهائيا من الخدمة، وأصبح يطارد الفئران في السجن، ريثما يحين موعد إعدامه..

مرت شهور حتى أخبرنا مسعود وهو شرطي في القلعة، أن عثمان أعدم وهم في طريقهم إلى القرية ليرموا جثته في أول هوة في المقبرة.. وحين ووري بالتراب وضعوا له شاهدة كتب عليها مسعود هنا قبر عثمان صائد الفئران..

وغاب عثمان صائد الفئران عن ذاكرة القرية، ومرت عدة شهور، اشتكت خلالها معظم بيوتات الحي من الفئران التي قرضت أطعمتهم، ورقعت ملابسهم، وتعشش بعضها في أفرشة النوم، بل أفسدت معظم المحاصيل الزراعية، وظل عددها يتفشى يوما بعد يوم، وهمت سواعد أهل القرية للقضاء على الفئران كل بسبيله، وطفا على ذاكرتي ذكرى عثمان الذي كان ماهرا في مطاردة الفئران بل كان يشتم جحورها وبهجمة يقضي عليها واحدا واحدا وعلى التوالي، فشققت طريقي إلى المقبرة، ودنوت صوب قبر عثمان، وحين انتصبت على رأسها، سمعت خشخشة ما، سرعان ما تلا ذلك حركة قوية جفل قلبي منها، ولما أمعنت النظر، رأيت حشودا من

Twitter: @ketab_n

فئران كبيرة تخرج من ثغرة محفورة مشقوقة من شاهدة قبر عثمان، هالتني الصدمة بل أوقعتني في حيرة كبيرة، ويبدو أن الفئران اتخذت من قبر صائدها عشا آمنا لبقائها، قرأت الفاتحة على روح عثمان وغذيت سيري إلى القرية، بينما سري في قلبي يتخبط في جنباته..!

Twitter: @ketab_n

ليلة اثنين وستين ١

أُدعى يوسف، ولدت في عام ١٩٤٨ م، إنني في هذه اللحظات احتفل بعيد ميلادي الثاني والستون، زوجتي التي تصغرني بعشرة أعوام وأبنائي وأحفادي ضاجين حولي والبهجة على وجوههم كإشراقة صباح نديّ، طلبوا مني بنفحة واحدة أن أضخ أنفاسي على الشمعة المشتعلة المجسمة على رقم أعوامي الثاني والستين..

كانوا سعداء جدا.. أبنائي بأبيهم الذي ما يزال ينبض بالحياة، الأحفاد بجدهم الذي ينعتونه بعفوية "جدي" ولم يتعرفوا عليه خارج نطاق هذا اللفظ، زوجتي لمست في عينيها حدوبتين الذين قلّصهما الزمن نظرة امتنان، فأنا لم أكن زوجا شرسا ولم نتجادل يوما، طوال تلك الأعوام كنا نعيش باحترام مفرط وهو ما جعلنا زوجين هادئين بامتياز..

لكنني في قاع هذه الضجة المنمنمة على شرفي حفر خاطر آخر كياني بقوة خاطفة كلمحة برق، فتملكتني رغبة ملحة في الانفراد بعيدا عنهم، لذلك اضطررت بعد إطفاء الشمعة وتقطيع كعكة ميلادي التي كتب عليها "عيد ميلاد سعيد" أن أدّعي التثاؤب عدة مرات وأعرف حينئذ سيشفق أبنائي عليّ وينسحبون سريعا مع أبنائهم كي أنام بهدوء..

و حدث ما توقعت، بعد برهة غادر الجميع بعد أن مرّروا قبلاتهم الحارة على خديّ متمنين لي عاما سعيدا، أما زوجتي فقد طفقت تلملم الصحون

Twitter: @ketab_n

الوسخة ببقايا الكعك مكوّمة إياها في المغسلة كما تفعل عادة لتشطفها صباحا، ثم دلفت الفراش قربي وتداعت منها ابتسامة هادئة سرعان ما بلعها القرص المنوّم، وحين تأكدت تماما من أنفاسها المطمئنة بالنوم، انزلقت من الفراش ثم أدرت قفل خزانتي وواطأت قامتي إلى درج صغير في الأسفل فتحته بمفتاح أحرص دائما على الاحتفاظ به في محفظة نقودي، ثم أخرجت كراسا جلديا وعلى رؤوس أناملي توجهت إلى غرفة المعيشة، لم أشعل الضوء لكن شرعت النافذة على درفاتها فانعكس ضوء القمر على مساحة الغرفة كهالة قنديل خافت، اقتعدت على كرسيّ الخشبي المتحرك الذي لم يتزحزح عن مكانه مذ انتقلنا لهذا المنزل..

فتحت الكراس، كان الشريط الأصفر اللون مسترخيا في صفحة إحدى وستين، قبضني إحساس ما حين رأيت الصفحة التي تليها تشير إلى الرقم ٦٢.. كانت بيضاء، مساحة خالية من الخربشة، من الأحداث، مني.. ناصعة كوجه طفل حديث الولادة، وطفقت أقلّب في صفحاتها بعشوائية، اقتنيت هذا الكراس بعد تخرجي من المدرسة، كنت حينها في الثامنة عشرة من عمري، وفي يوم نجاحي تحديدا كما أذاع المذيع في راديو أبي العتيق، صاحت الفرحة في البيت ووالدي هو أول من هنأني ثم وضع في كفيّ مبلغا كبيرا من المال، وطلب مني وسط ابتسامته السبعين المجعدة أن أبددها كلها دفعة واحدة، ويومها لا أعرف كيف وأين بددت المال..؟ كل ما أتذكر من مقتنيات المبلغ هذا الكراس الذي بين يدي ومذ يومها انكفأت بين حين وحين أخربش عدة سطور هنا وهناك عن مواقف عبرت بي في سنواتي السابقة، لا شيء حافل، حوادث مكررة وعادية يمر بها أي شخص آخر،

Twitter: @ketab_n

واعتقد أن اسمي وتاريخ ولادتي هما الخط الفاصل بيننا لا أكثر، كنت اختصرها ببساطة في أجندة معينة:

في عام ١٩٦٦ م: تخرجت من المدرسة، كنت في الثامنة عشر، كانت هذه السنة بالنسبة لي مرحلة انعطاف، ركبتني أحلام كثيرة لا داعي للإسهاب فيها، وتحدد منها مصيري بعد ذلك.

في عام ١٩٦٧ م: في هذه السنة التحقت بالجامعة، تخصصت في كلية الزراعة، وبقيت خمس أعوام وأنا أتعلم فنون البستنة وأمارسها كتخصص..

في عام ١٩٧١ م: كنت قد ودعت الدراسة الجامعية، وبقيت أجوب الشوارع كأي عاطل شاب يفتش عن عمل..

في عام ١٩٧٣ م: بعد إتمام عام على وظيفتي أكمل لي والديّ نصف ديني، فتزوجت زوجتي وهي نائمة الآن في غرفة النوم..

في عام ١٩٧٥ م: أصبحت أبا بعد إنجاب زوجتي طفلنا الأول "فهد"..

في عام ١٩٧٧ م: أصبحت أبا للمرة الثانية ولكن هذه المرة لابنتي "مريم"..

في عام ١٩٩٦ م: غادرت ابنتي مريم المنزل برفقة زوجها..

في عام ١٩٩٨ م: تفرع ضيف صغير من شجرة العائلة وأصبحت وزوجتي جدين..

في عام ١٩٩٩ م: تزوج ابني فهد وبقينا أنا زوجتي وحيدين في البيت..

Twitter: @ketab_n

في عام ٢٠٠٠ م: أنجب فهد الحفيد الذي سيحمل اسمي من بعده..

في عام ٢٠٠٣ م: أصبت بمرض في الدم وواظبت زوجتي على الاهتمام بي بشكل أكبر..

في عام ٢٠٠٥ م: لازمت المستشفى لمدة أسبوع؛ نتيجة تناولي طبقا من الفول كانت به كمية مضاعفة من الثوم فأختل توازن الدم في شراييني كما شخّص الطبيب حالتي..

في عام ٢٠٠٦ م: تقاعدت من وظيفتي..

إلى هذا التاريخ ينتهي تسلسل الأحداث التي عايشتها في حياتي، هناك سنوات لم اذكرها، لأنها مرت مرور الكرام، عابرة روتينها بوفاء ككلب مخلص..

أدرت توقيت ذاكرتي إلى صفحة اثنين وستين، بقيت أتأمل بسكون في فراغها، بياضها الأخاذ يستدعيني بقوة، بحثت عن القلم الذي كان قريبا مني على المنضدة قصيرة الأرجل المجاورة للكرسي، ترددت لبرهة قبل أن أهمّ في تسجيل الحدث، ثم استقلت عن الكرسي وتوجهت نحو المطبخ، تخيرت بعناية قطعة كبيرة من الثوم، فصفصت حباتها بعناية وجمعتها في طبق، ثم عدت إلى حيث كنت، ودونت برجفة خفيفة تخللت عظامي الهشة ما يلي:

في عام ٢٠٠٩ م: في هذه السنة غادرتُ الأشياء والأحداث من حولي وتركتها ورائي، يوسف البالغ من العمر اثنين وستين عاما..

Twitter: @ketab_n

ليلة اثنين وستين ٢

"هذه القصة يمكن اعتبارها قصة مكملة لقصة ليلة اثنين وستين ويمكن اعتبارها إن شئتم قصة مستقلة، هي ترضي عقل قارئ عاجز عن تخيل أحداث قصة منتهية أي أنها ببساطة ترضي خيال كل فضولي يعشق التفاصيل"..

لا يمكن لأحد كان أن يقدّر حجم تعاستي..!

البارحة حين عدت من سفري في لندن وكان ذلك في تمام الساعة العاشرة صباحا، عرجت على المكتب أبلغت السكرتيرة أن تجهز أوراق الصفقة وترسلها بالفاكس إلى مقرنا في لندن، ثم خرجت من المكتب وعزمت هذه المرة أن أغير مخططي كما أفعل عادة حين أعود من سفر ما بالذهاب إلى البيت، ولكنني اليوم عوضا عن ذلك اتصلت على رقم صديقي يوسف لادعوه على الغداء وهي أقل هدية أقدمها له بعد تذمره على سفري وتغيبي عن حفل عيد ميلاده، ولكن لوهلة سمعت على الخط صوت امرأة وعرفت أنها زوجته، كان صوتها بائسا ودون مقدمات قدمت لي خبرا انتشل حيويتي تماما.. قالت لي بالحرف الواحد: **يوسف انتحر...!** وانهارت فجأة باكية وأقفلت الخط..

شعرت لحظتئذ أن كل قواي منهارة وكأن جبلا سقط على هامة رأسي.. حاولت أن استعيد وعيي، ووجدتني اتصل على فهد لأستوعب منه صدق

Twitter: @ketab_n

الخبر، أكد لي فهد بصوت متمزق الخبر فطلبت منه أن ينتظرني في بيت والده، وعندما صعدت السلالم ووقفت عند الباب للحظات قبل أن أبصم الجرس بسبابتي وفكرت أنه آخر يوم لي أكبس فيه على هذا الجرس وأقف أمام هذا الباب فيوسف لن يفتح لي الباب بوجهه البش كما كان يفعل دائما حين يجدني أمامه على غير موعد مسبق، لم يكن أحد في البيت كان يبدو مهجورا، نقل لي فهد الحقائق تدريجيا على نحو التالي:

رواية الأم:

"قال لي أن أمه حينما استيقظت في الصباح بعد ليلة احتفاله بعيد ميلاده الثاني والستين حين كانوا جميعهم محلقين حوله ومبتهجين سرعان ما انتهى الحفل واستأذنهم والده كي ينام باكرا، في الصباح التالي لم تجده في الفراش، ولم يكن من عادته أن يفيق قبلها من النوم، فكرت أنه في الشرفة غير أنها لم تجده هناك، بحثت عنه في أرجاء البيت وحين وقفت قرب غرفة المعيشة وجدت أن بابها موارب دفعت الباب بيدها فوجدته مستلقيا على الكرسي الخشبي المتحرك والنافذة مفتوحة رغم برودة الجو في مثل تلك الساعة، دنت منه وحاولت أن توقظه لاعتقادها بأنه غارق في النوم ولكن حين لاحظت تيبس جسده وازرقاق جلده أدركت أنها أمام جسد خال من الروح تماما، ولوهلة وجدت أنفاسها تضغط على صدرها بقوة ولا تذكر بعد ذلك شيئا"..

رواية مريم:

"حتى مجيء مريم التي كانت من عادتها أن تضع ابنها الرضيع في رعاية أمها قبل أن تذهب إلى الوظيفة، في ذاك الصباح وجدت أن أمها ولأول مرة

Twitter: @ketab_n

مذ تعهدت رعاية ابنها الرضيع طوال أيام عملها لم تبق الباب مواربا كالعادة، راودتها فكرة أن تنبههم بالجرس إن كانوا نياما حتى تلك الساعة فاحتفال ليلة البارحة لعله أتعبهم، لكنها سرعان ما نحت فكرتها جانبا وتذكرت أن والدها حين تكرر عليه نسيان مفتاح البيت داخل البيت قبل مغادرته راودته فكرة وضع مفتاح احتياطي للباب تحت السجادة التي تقف عليها، وقد أسعفتها لحسن الحظ ذاكرتها، أدارت المفتاح في عين الباب، فهجم عليها سكون المكان ولاحظت أنه بارد فتوجهت نحو الموقد ووضعت فيه بعض قطع الخشب فتمدد الدفء في أصلابها، أرادت أن تتوجه إلى غرفة نومها غير أن حياءها منعها عن ذلك، وحين دلفت إلى الصالة الداخلية لاحظت أن باب غرفة المعيشة كان مشرعا كفم صارخ، ولوهلة انقبض قلبها وحين وقفت أمامه وشاهدت والدتها طريحة على الأرض بينما والدها مستكين على كرسيه الخشبي أطلقت صرخة سرعان ما كتمتها خشخشة من جسد والدتها، لهثت نحوها، تلعثمت أمها ببضع كلمات أدركت معها أن والدها غادر الحياة بلا رجعة"..

بعدما سمعت حكاية الحادثة تدريجيا من فهد بناء على رواية أمه وأخته، طلبت منه رؤية غرفة المعيشة وكنت على يقين أنها الرؤية الأخيرة لي، دخلت لوحدي ففهد اعتذر بلطف لأن الغرفة تذكره كثيرا بوالده، حين ولجت الغرفة كان كل شيء على حاله مذ آخر مرة جلست فيها مع يوسف، الكرسي الهزاز في مكانه قرب النافذة تماما، وأمامه منضدة قصيرة الأرجل وجد عليها الطبق الذي كان به حبات قليلة من الثوم، وجدت الدفتر الذي حكى لي عنه فهد في مكانه على المنضدة يقال إن الشرطة لم تجد فيه شيئا

Twitter: @ketab_n

سوىٰ الإقرار الأخير الذي كتبه قبل أن يرحل بروحه، لفت وجوده فضولي في تلك اللحظات هناك بوضعيته المحايدة، اقتعدت علىٰ الكرسي وأخذت الدفتر الذي كانت معظم صفحاته خاوية، سوىٰ بضع صفحات منها مخربشة بشيء ما، كان ثمة شريط أصفر يتدلىٰ من أسفله وقفت عنده كانت ثمة عبارة قصيرة بخط يد تقول: **"في عام ٢٠٠٩م في هذه السنة غادرت الأشياء والأحداث من حولي وتركتها ورائي، يوسف البالغ من العمر اثنان وستون عاما"**..

صعقتني هذه العبارة التي لم أفهم كنهها، قررت أن آخذ هذا الدفتر معي، خرجت من غرفة المعيشة ودعتها بعيني إلىٰ الأبد، لم ير فهد الدفتر بحوزتي فقد خبأته تحت طية القميص الذي كنت أرتديه، لا أدري لم تصرفت هكذا، لكن شيئا ما في هذا الدفتر تحديدا في العبارة الأخير أفزعتني..؟!

توجهت رأسا والدفتر مخبأ تحت قميصي ككنز ثمين أقفلت الباب بعد أن أمرت السكرتيرة ألا تدع أحدا يدخل المكتب، وخلف مكتبي فتحت الدفتر الغامض من جديد، لم يكن ثمة أحداث تستحق الوقوف ولاحظت أن يوسف لم يذكرني ضمن مذكراته إن شئت تسميتها بذلك فهي كانت عبارة عن سطور قليلة تناول فيها أهم الأحداث الشخصية في حياته..

غمر جوفي سؤال حارق همد تفكيري كليا وصار وسواسه هاجسي، من الذي دفع يوسف للانتحار..؟

والذي فهمته من فهد أن والده مات بسبب خلل في الدم ناتج عن تناوله كمية كبيرة من الثوم، دققت مرة أخرىٰ في العبارة الأخيرة التي دونها

Twitter: @ketab_n

يوسف، كان الخط واضحا جدا بعض الحروف متعرجة ربما ذلك ناتج عن ارتعاش خفيف انتابته في لحظاته الأخيرة، لا مفر من الحقيقة إذن العبارة الأخيرة بيان كاف جدا على أن يوسف كان جادا فيما أراد أن يفعله..

بقيت لمدة أسبوع أفتش عن إبرة في كومة قش، يوسف لم يقابل أحدا سواي في الفترة الأخيرة، غيابي عنه لمدة سبعة أيام حتى ليلة ميلاده كان قابعا في البيت كما قال لي المقربون منه، لكنني لم اطمئن من دقة أقوالهم، فلربما قابل أحدهم في تلك الأيام وقد صدق حدسي تماما حينما قال لي فهد أن ثمة رسالة نصية قصيرة وصلته من رقم غريب في ليلة ميلاده وكانت تقول: **"يوسف عيد ميلاد قديم ها أنت ستضيف سنة أخرى إلى الرتابة التي ستعيشها"**..

طلبت منه من فوري رقم الهاتف ومن هنا بدأت الحقائق كلها تظهر تدريجيا حتى وجدتني ماثلاً أمام امرأة في مصح عقلي، كانت هي التي تسببت في قتله، لم آخذ منها سوى ترهات، حينما خرجت من عندها كنت غاضبا جدا أبلغت عائلة يوسف بالحقائق كلها، بعد يومين أبلغني فهد أنهم رفعوا قضية على تلك المرأة واتضح لهم أنها ارتكبت أكثر من جريمة..

حين أقفلت الخط شعرت أن كل ذلك ما عاد يهمني البتة، هواجس تلك المرأة بدأت تطاردني، صرت أدقق في كل الخطوات التي خطيت منها طوال حياتي، سفر، صفقات، زوجة، أبناء...الخ الرتابة نفسها كما قالت تماما، إننا نحيا في رتابة تنجب نفسها آلاف المرات في حياتنا يوميا حتى صديقي العزيز يوسف كنت بالنسبة له رتابة أخرى مضافة إلى حياته؛ لدرجة أنه لم يأت على ذكري في دفتره على الرغم من أعوام الطويلة التي قضيناها معا بحلوها ومرها...

Twitter: @ketab_n

لثلاثة أيام مذ مهاتفة فهد وأنا متمزق في هذه الهواجس، في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المكتب، كان الصباح مثل الذي قبله والسكرتيرة نفسها والعبارة نفسها تزين شفتيها الممتلئتين كل يوم، المكتب نفسه والرائحة نفسها، كل شيء في مكانه.. وحين نظرت إلى النافذة الزجاجية الكبيرة كان الشارع غارقا في الزحام كما في كل يوم..

أدرت نظري فيما حولي وأحسست بأن شعورا غريبا بدأ يزحف نحوي، في داخلي ثمة من يقول لي أن أجعل هذا اليوم مختلفا عن غيره من الأيام التي عشتها طوال عمري، عزمت أن لا يكون كما في كل يوم، والعالم كله سيعرف أن حسان لم يكن يوما كما كان في يومه هذا تحديدا...

Twitter: @ketab_n

غيمة مثقوبة

تنويه: "لفهم حيثيات هذه المحاكمة، أرجو الرجوع إلى قراءة قصص التالية: هل قابلتم فكرة السيد رضوان؟، ليلة اثنين وستين، صائد الفئران، العباءة"..

الجلسة رقم "١"..

لا أدري ماذا جرى..؟!

وجدت نفسي في غرفة أشبه بفضاء فضفاض، السقف متداع يحمل في قبته لمبة صفراء ذكرتني بغرف المحققين كما رأيتها دائما في أفلام السينما، ثمة مروحة قديمة تدور فوق رأسي حتى خلت أنها ستقع عليّ بين برهة وأخرى، ولم تكد دهشتي تستيقظ من غرابة المكان حتى تناهت همهمة أصوات لم أتعرف على مصدرها في البدء، وحين رفعت رأسي قليلا عن مستوى السقف وجدتني أمام رجال يتصدرون منصة عالية تعلو قاماتهم بدلات أشبه ببدلات القضاة وامرأة واحدة في خيمة سوداء لا يظهر منها سوى عينيها تقبع بينهم في آخر المنصة، تقدم مني أحدهم ويبدو أنه كان الحاجب، ودون أن يصدر صوتا يمّم وجهه ناحيتي رفعني من كتفي حيث كنت مقتعدة على كرسي خشبي بظهر، ثم توجه إلى مكانه وتجمّد كعمود نحيل أمام باب حديدي عريض يعلوه الصديد، قال لي أحد الرجال الذين كانوا على المنصة بصوت قطع سكون الزوايا المظلمة تماما:

Twitter: @ketab_n

- ليلى، اسمك يذكرني بقصة ليلى والذئب، ولكن مع الأسف الشديد أنت الذئب هذه المرة، بينما ليلى تلك الفتاة الشريفة لم تنهل من فضائلها شيئا سوى أنك سميّتها، لكن ما فائدة الأسماء التي نحملها حين نعجز عن المواظبة في تطهيرها من كل خدش..؟!

انبهرت من لغته، شعرت وكأنني حشرة وهو كائن عملاق لن يتوانى عن سحقي بنفخة من فمه الممتلئ، ولم أجد نفسي سوى ألقي عليه ببضع جمل عشوائية:

- عفوا، أنا، ربما حضرتك أخطأت في الشخص المطلوب..؟!

انطلقت منه قهقه برزت منها أسنانه الشبيهة بأسنان آكلي لحوم البشر:

- أعشق براءة النساء حين يقعن في مطب الفريسة..!

- أنا حقا لا أفهم ماذا يجري.. ومن أنت، ولماذا أنا هنا..؟!

رد عليّ بالبرود ذاته:

- وما حيلتنا نحن الرجال حين تتصنع المرأة بالضعف وكأن القطة أكلت عشاءها، حسنا يا من تدّعين فقدان الذاكرة بين يدي ملف يوسف الذي كان أحد ضحاياك..!

- فقدان ذاكرة، ضحية، يوسف.. ماذا تعني، ثم إنني لا أعرف أحدا بهذا الاسم..؟!

حدق بي من علٍ مقعده بصمت مهيب كعاصفة صامتة تنذر بخطر محقق وحين قطع صمته قال لي بحدة شاركته نظراته في تمثيلها:

Twitter: @ketab_n

- يوسف الذي احتفل بعيد ميلاده الثاني والستين في حضرة أسرتـه، وفي الليلة ذاتها قدته إلى غرفة المعيشة حيث كان مصرعه.. ماذا تقولين في التهمة الواقعة عليك في مقتل يوسف وبلا مراوغة..؟

- عفوا، إن كنت تعني يوسف الذي أعرفه فهو لم يُقتل بل انتحر..

- أو لست أنت من خطط له ذاك الانتحار في النهاية..؟

- كان ذلك قدره..

- أي قدر هذا يا مجرمة، ألم يكن رجلا سـعيدا في كنـف زوجتـه وأبنائـه وأحفاده..؟!

- قلت كان ذلك جزءا من قدره..

- لا.. أنت من اختار له ذاك القدر..!

- استغفر الله! هل أنا ربّ الجلالة كي أختار قـدره..؟! أو حتـى أقـدار الآخرين بملء إرادتي، ما أنا سوى كاتبة تحـاول كتابـة قـصاصات تركنهـا تحت مسمى قصص..؟!

- دعك من فلسفة الخائبين، وها أنت تتخذين هيئة الشيطان في التملص من ذنوب ضحاياه..!

وهنا قطع حديثنا قاض آخر، ووّجه عينيه المستديرتين ككشافتين نحوي وتبدو من تقاطيعه بلادة ظاهرة وحـين ترجـل عـن كرسـيه خلـف منـصة القضاء تبينت لي هيئته القصيرة، كرشه مترهل للأمام كنهد أنثى القرد، دنـا ناحيتي وظل يتملص نظرات لم أفهم مغزاها حتـى قـال لي بـصوته النـاعم الأشبه بصوت امرأة عجوز:

Twitter: @ketab_n

- جميل يا ليلى، ها أنت بحديثك هذا تقرّين بارتكابك تلك الجريمة في حق يوسف المسكين، لكن أريد أن أعرف ماذا كان موقف زوجة يوسف التي كانت نائمة بعد وقوع حادثة الانتحار في صباح اليوم التالي..؟

- عفوا..!

دار حولي بقامته القصيرة عدة دورات ثم قال بنبرة أشد من الأولى:

- يبدو أننا يا ليلى، سنضطر إلى تقطيع أصابعك الرشيقة إصبعا إصبعا، أو ليست هي من اقترفت تلك المكيدة النكراء..؟!

وهنا بللت الأرض من عرق خوفي ولم أجد نفسي سوى أنني أتفوه ببضع جمل لا أدري كيف خرجت من فمي..؟:

- سيدي القاضي، بماذا تريدني أن أخبرك، بل لا أعرف ماذا حصل بعد ذلك، عادة نحن الكتّاب نترك ذلك لذكاء القارئ وأنا ليس بإمكاني.....

قاطعني هنا بهمجية حيوان هائج:

- عن أي ذكاء تتحدثين يا مجرمة، نحن أمام جريمة، ولا وقت لدي كي أبددّه على تفاهاتكم أيها الكتّاب..!

ومن حسن حظي صعد بكرشه الكبير المنصة، في حين انتصب قاض آخر أطول قامة منه بقليل، تزين صلعته لمعة تلفت النظر وبلا مقدمات أو حركات غريبة قال لي بصوته الرصين:

- ماذا عن السيد رضوان، ذاك المسكين الذي هجر أسرته وعمله وأصدقاؤه ليجري كالمعتوه خلف فكرة لا نحيط بمغزاها أو ما هي أصلها، وهنا الحكاية أكبر من جريمة تقترف، هنا يا مدعيّة البراءة، خلخلت فكر

Twitter: @ketab_n

الإنسان العربي من عقاله وجعلت منه أضحوكة العالم الآخر، قولي لي الآن لمصلحة من تعملين، ومن هم عملاؤك، ومن أنت..؟!

ولم يكد ينطق بجملته تلك حتى وجدت أمامي المرأة التي كانت قابعة في آخر المنصة ثم وجهت كلاما إلى القاضي الذي هجم عليّ باتهاماته:

- يبدو أنها تخجل منك، دعها لي، نحن ـــ النساء ـــ لنا طرقنا الخاصة في تصفية الأمور، أتركها لي..!

اقتربت مني وهمست في أذني اليمنى عبارة غريبة لم افهم كنهها "....."..!

صرختُ بصوت مدوٍ:

- تساندينني ضد من..؟ أنا لا أفهم شيئا..؟!

حدقت بي بحقد كبير وكأني سلبت منها زوجها:

- عنادك هذا لن يكون في صالحك، وإن أردت الصدق الشعب في الخارج ثائر عليك حتى أقصى حد....

قاطعتها ووجهي متلون بالدهشة:

- الشعب، ثورة... وماذا فعلت لهم حتى يثوروا علي..؟!

ابتسمت بخبث مبطن ثم قالت:

- سؤالك هذا ينم عن بداية فهمك للموضوع، عزيزتي أتذكرين العباءة التي جعلت مصيرها الحرق، رأى الرأي العام أنك تقلصين من أهمية العباءة الساترة لبدن المرأة وتروّجين للعباءات الفاتنة التي تكون أشبه بفساتين الأعراس... وأنت....

Twitter: @ketab_n

- ما هذا الكلام، ليس هذا ما عنيته بـ.....

كوى غضبها وجهي حين أطلقت بنبرة حادة:

- أولست أنت التي بررت قولها قبل حين عن ترك حيثيات النص لذكاء القارئ، ها هم قراؤك الأذكياء ثائرون ضدك باسم الدين..؟!

- مهلا، مهلا، بأي حق تحاسبونني أنتم..؟!

قال القاضي صاحب الصلعة الملمّعة:

- ممنوع التدخل في شؤون الداخلية، نحن من يطرح الأسئلة فقط وعليك أنت ملء آذاننا بأدلة مقنعة..

- ما هذا القانون..؟ وأي شؤون داخلية تعنون..؟!

- قلنا لا يحق لك الكلام دون إذن مسبق، ثم احكي لنا عن الجرائم التي ألصقتها بظهر عثمان..

- عثمان كان ضحية والده وبلده وليس ضحيتي، كان يحيا بأمان كاف شرّه من حوله يتصيّد الفئران من مكان إلى آخر، لكن الحياة البشعة لا تترك إنسانا بحال حين تريده كبقية خلق الله يأكل، يعمل، يثرثر، يمارس الجنس، وإذا ما خلق على هيئة أخرى فإنه مدان أبدا..!

نطق القاضي قصير القامة من خلف المنصة بلغة ساخرة:

- آها، هذا كلام خطير، يبدو أنك لا تزنين الكلمات التي تلقينها في الهواء جزافا في حق الحياة، هكذا أنتم دائما حين تقترفون المحظور تلقون كافة بشاعتكم على الحياة والوطن..

خاطبته بغضب كبير:

Twitter: @ketab_n

- يا أخي، الكتابة هي الحياة نفسها..!

- قلنا دعينا من ثرثرات الكتّاب التافهة، تقبعون خلف مقعد فارهٍ في غرفة منعزلة عن الحياة تماما ثم تستعرضون حماقات لا أساس لها في الواقع وتدّعون أنها الحياة.. والناس البلهاء يصدقون تلك الأكاذيب..!

تنفست الصعداء ثم نظرت إليه بثقة:

- سيدي، دعني أصفق لك، أجل ما قلته صائب تماما، نحن نكتب أكاذيب، وأنا واحدة من أولئك الذين يسجلون أكاذيبا خرقاء لملء قصاصاتهم، حسنا إذن معك حق وأقرّ بأصابعي التي اكتب بها أن ما أشرت إليه هو عين الصواب، وعليه إذن أنا بريئة من التهم التي ألصقتموها بي جزافا، فكل تلك الجرائم كانت أكاذيبا كتابية لا أكثر ولا أقل، أوهام، يوسف وهم والسيد رضوان وهم، وعثمان وهم.. كلهم أوهام...

قتلت ضجتهم سكون المكان واتجهوا كلهم ناحيتي، وبدت قاماتهم عريضة وجوههم كبيرة وشفاههم منفوخة تشهر في وجهي كلمات نابية لم اذكر منها سوى كلمة واحدة وتداعت إلى أذني بنبرة واحدة بشعة بينما قدماي تقهقراني نحو الوراء:

- مجنونة.. مجنونة.. مجنون.....مج..نووووووووو..ن....

الجلسة رقم "2":

يبدو أنني فقدت الوعي عن العالم المحيط بي مدة زمنية لا تقل عن أربعة وعشرين ساعة، وحين فتحت نافذتا عيني وجدتني أتقلّب على سرير حديدي عار إلا من أغطية بيضاء شممت فيها رائحة مطهرات، لم أرَ أحدا

Twitter: @ketab_n

وكان ينبغي على ما يبدو أن أكبس على إحدى أزرار التنبيه لطلب المساعدة، ولسبب ما وجدتني أزيل الأغطية وأنهض عن السرير، أحاذي خطواتي غير الثابتة نحو الباب الذي أحبطني بشدة حين اكتشفت إقفاله، يممت وجهي حول الغرفة لعل نافذة مشرعة تُهرّبني إلى حرية ما، لكن ما حولي كان فراغا أزرقا بأبعاد مربعة عاريا إلا مني والسرير الحديدي بأغطيته البيضاء وشق يحمل في جوفه أسلاك جهاز التنبيه، نازعني شعور بالحيرة بين طلب المساعدة أو التحملق في فضاء الغرفة لحين حضور أحدهم، ورأيت أن فضولي مراهق نزق وضغطت من فوري بسبابتي على إحدى الأزرار وكان قلبي حينئذ كمصعد معطل يعلو ويهبط بعنف وكأنما انتابته هزة زلزالية، وما أن حررت سبابتي من الضغط حتى وجدت مقبض الباب يدار على الجهة الأخرى الفاصلة عني حقيقتها..

دلف منها رجلان أحدهما بقامة متوسطة مشبوب الوجه ونظارة بعدسات دائرية على أنفه الطويل وفي يده حزمة أوراق وقلم، بينما الآخر كان ذو قامة متناسقة يحمل في إحدى يديه كتابا والأخرى قلما، جلسا على مقعدين وضعته لهما الممرضة السمينة.. تنحنح صاحب النظارة ثم قال لي:

- أرجو أن تتعاوني معنا يا ليلى، إن كنت ترغبين الخروج من هذا المكان في أقرب وقت..؟

وأشار الآخر:

- تعاونك معنا يحل المعضلات كلها..؟

لم اطمئن للهجتهما ولا نظراتهما التي تتحدث بألف وألف مأرب فصرخت في وجهيهما:

Twitter: @ketab_n

- ماذا تعنيان بهذا المكان وما هي المعضلات التي تلاحقني، أنا لم أفعل شيئا، ولماذا أنا هنا.....؟!

دخلت هنا الممرضة على صوت صراخي، نظرت إلى الرجلين ثم خاطبتهما بنبرة جادة:

- ماذا هناك، رجاءً المريضة في حال لا يسمح لها بالجدال..؟!

انفلت لساني بعصبية نحوها:

- ماذا تعنين بقولك المريضة، وأين أنا، ومن أحضرني إلى هنا..؟!

حدجت بعينيها الرجلين، ثم قالت لي:

- أنت هنا بأمر القضاء، وستبقين إلى أن تتعاطي علاجك على جلسات.. لا استطيع أن أوضح أكثر من ذلك..

شقت خطواتها إلى الباب بعد أن خاطبت الرجلين بعدم تعريضي لنوبات هستيرية..

خاطبني صاحب النظارة مرة أخرى:

- أرى أن رائحة الموت فاحت في معظم نصوصك الأخيرة من انتحار إلى حرق إلى إعدام وأتوقع أن ذلك عائد إلى طفولة سوداء مررت بها، ويبدو أن تلك السوداوية انعكست كمرآة على البقية الباقية من حياتك..

طمأنتني لفظة "نصوصك" دون أن أبالي ببقية تحليلاته المضحكة التي لا تمس مطلقا طفولتي المزدحمة مع إخوتي الصغار المرحين، تنفست الصعداء وقلت له:

Twitter: @ketab_n

- أخيرا ثمة هناك من يفهمني، ويرى أن تلك الجرائم ما هي سوى أوهام قصاصات..!

قال لي بحزم دون أن تتقلص عضلات وجهه:

- رجاء بلا سخرية، هناك كثير من القصاصات عليّ تمحيصها، والآن أخبريني عن سير الأحداث المأساوية وارتباطها الوثيق بنصوصك..!

- أنت تمتلك أربعة عيون قلبهم حيثما تشاء في بقاع العالم ستجد جوابا لسؤالك هذا..!

خاطبني بحدة:

- يبدو أن وجودك هنا لم يكن عبثا، تعلمين عنادك هذا سيكون سبب حتفك في النهاية..؟

- هل تعني بأني مجنونة لمجرد وجودي في مصح عقلي، إذن أنتما أيضا مجانين وكل من تطأ قدمه بلاط هذا المكان فهو مجنون..؟!

شرع الآخر صفحات كتابه ثم قال لي بنبرة ناقد:

- مجموعتك الأولى (صمت كالعبث) كنت فيها ذا نفس شاعري مرهف ومضمّخة بالحب، لماذا لم تسلكِ الطريق عينه في كتابك "كائنات سردية"..؟

- وهل ينبغي علي في كل محاولة كتابة أن اسلك الطريق نفسه..؟! ثم إن الكتابة هي التي تختار طريقها ولا أخضعها أنا لرغباتي..!

قال لي وهو يقذف علي جمرات غضبه:

Twitter: @ketab_n

- أرى أنك ترفضين التعاون معنا، إذن نحن أيضا لـن نتعـاون معـك.. وعليه.....

قاطعته بحدة:

- لا أريد منكما شيئا، ابتعدا عني، اخرجوا من هنا... ابتعدوا.....

دخلت الممرضة على صوت انفعالي.. شعرتُ بشيء حاد يخترق دمـي... ثم مات كل شيء من حولي..

الجلسة رقم "٣" والأخيرة:

حينما أفقت من نومي هذه المرة كانت أعـضائي مخـدرة تمامـا، وفي فمـي مرارة، الرؤية كانت مضببة، وحينما استعدت وعيي تدريجيا كانت الممرضـة السمينة واقفة وهي تقول لي دون أي تغيير في ملامح وجهها:

- هناك رجل يريد أن يقابلك ولكن إن كنت لا تريدين سأسرّحه فورا..؟

انتصب الصمت رصاصا بيننا ثم قلت لها بصوت منفعل:

- لا أريد أن أقابل أحدا، اتركوني وشأني..

ولم أكدّ أكمل عبارتي حتى وجدت رجلا واقفـا أمـامي في عينيـه نظـرة رجاء سرعان ما نطق:

- أرجوك، أستاذة ليلى، لن آخذ من وقتك الكثير..؟

حاولت الممرضة السمينة أن تمنعه ولكني أمرتها أن تتركنا وحدنا..

جلس الرجل أمامي لم يكن وجهه الذي بدأت التجاعيد تحفر فيه بـبطء مألوفا.. كان يحدق فيني بتوتر واضح ولعلـه أراد أن أبـدأ بالـسؤال، لكـن سرعان ما قال لي ببساطة مطلقة:

Twitter: @ketab_n

- أنا حسان صديق يوسف، لي سؤال وحيد أريدك أن تجيبي عنه رجاء..؟

قلت له ببرود ودون اعتراض على طريقة اقتحامه:

- ما هو..؟

- لماذا يوسف دون الآخرين..؟

- ماذا تعني بسؤالك هذا..؟

- أعني أن أسرته لم تكشف جريمتك في حقه..

- عن أي جريمة تتحدث..؟

- ألم تكوني السبب في انتحاره..؟

- يا إلهي، عدنا للجنون مرة أخرى..؟

- أرى أن الجنون يطاردك أنت..؟

- آها، حقا، ترى ذلك، إذن أنا مجنونة والقانون لا يُحمّلني أدنى مسؤولية..!

- رجاء، أجيبيني فحسب، لماذا يوسف..؟ لقد كان إنسانا بسيطا للغاية، اعتياديته مألوفة، لم يسلب أحدا، ولم يرتكب جناية في حق أحد..!

- قولك هذا إجابة عن السؤال الذي طرحته علي، يوسف ضاق من الاعتيادية التي عاشها طوال إحدى وستين عاما، الرتابة عينها، كل شيء في حياته كان واقفا حتى الزمن كان يكرر نفسه، أراد في ليلة اثنين وستين أن يضع حدا لتلك النهاية..؟

Twitter: @ketab_n

- أنت قاتلة، كل ما قلته افتراءات، كل من في العالم يتنفس من الرتابة نفسها، لكنهم متمسكون بحيواتهم كيفما كانت، أنت مجرمة سأشكيك للقضاء..

حين تناهى إلى الممرضة حديث الرجل الصاخب تدخلت بيننا وأخرجته إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب..

بعد أسبوع من هذه الحادثة أخبرتني الممرضة أن الرجل الذي جاء لمقابلتي في المرة الأخيرة وجدوه معلقا على مروحة مكتبه..

ملابسات الجلسات الثلاث:

اكتشفت أن الذين رفعوا علي هذه القضية إلى القضاة هم زوجة السيد رضوان واتهمتني بأني السبب في هجران السيد رضوان لها وتشرده في بقاع الأرض بحثا عن فكرته التي هربت، وعائلة يوسف اتهموني بأنني وراء انتحاره في تلك الليلة المشؤومة، بينما صاحب مشغل العباءة رفع علي قضية يطالبني فيها تعويضا ماديا عن قيمة المحل المحروق مع العباءات ناهيك عن رجال الدين الذين اتهموني بهتك ستر العباءة في مجتمعاتنا المحافظة..!

لا أدري هل كنت ضحية حلم غريب وشائك، أم فقدت وعيي إثر حادث ما..؟!

آخر ما تذكره ذاكرتي هي أنني كنت أفكر بكتابة قصة عن رجل يحتضر في ساعاته الأخيرة وخلال ذلك يتحسر على كل لحظة تضيع من عمره هباء تحت التراب تاركا خلفه عالما ينجب في كل يوم شيئا جديدا يستحق الحياة، وكنت قد نسيت اسمه وحين عدت إلى قصاصاتي القديمة التي كانت مبعثرة في أرشيف حاسوبي لم أجد اسما للشخصية، بحثت جيدا في كل

Twitter: @ketab_n

ملفاتي القديمة ولم أجد اسما أو أي بيانات شخصية تمثل هذه الشخصية، وكان يجب علي أن ابحث في سجلات السرية عن رجل ثري يحتضر، هذا إن كان ما يزال في هيئة الاحتضار ولم يفارق الحياة في الفترة التي لا أدري أين كنت، وماذا جرى لي فيها..؟!

بعد هذه الحادثة تزاحمت الصحافة على بابي، في كل يوم أقابل اثنين أو أكثر، نشرت صوري مع قصصي في صحف عديدة، حتى أنني ما عدت اذكر أسماءها.. تعاطف معي كثير من المجانين، لكن أدعياء المجتمع وحراس الفضيلة أدانوني كثيرا بمقالاتهم وادعاءاتهم..*

وملف القضية بقي مفتوحا كحذاء ممزق، لكنهم رفعوا أمرا بخروجي من المصح العقلي..

---

* لاحظوا أن يوسف لم يكن شيئا قبل أن ينتحر، ولكن بعدها أصبح رجلا ذا أهمية واعتقد أنه نجح في خطوته الجريئة تلك وضع حد للرتابة التي كان يعاني منها طوال سنوات عمره الحادي والستين..

Twitter: @ketab_n

المحتويات

يدّ ٧
مخطوطة ١٣
فتاة اسمها راوية ٢١
شجرة أحلام ٢٧
آكلو الولائم ٣٣
ذبابة وصاحب الأصابع ٣٩
المُقَدَّسَة ٤٥
صاحبة الابتسامة الساحرة ٥١
أنا وأمي وأختي حليمة ٥٧
الرجل الذي سيعقد قرانه عليّ ٦٥
العباءة ٦٩
هل قابلتم فكرة السيد "رضوان"..؟ ٧٣
كُرة ٧٧
من ابتلع الأصوات..؟! ٨١
حلومي ٨٧
يوم في الحياة ٨٩
بورخيس = بورخيص ٩٣

Twitter: @ketab_n

صائد الفئران ٩٥
ليلة اثنين وستين ١ ..... ١٠١
ليلة اثنين وستين ٢ ..... ١٠٥
غيمة مثقوبة..... ١١١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنا لا أتمنى غير يد / يد جريحة ، لو أمكن ذلك..

قرأ بمرارة هذه الأبيات من نص للشاعر الغرناطي لوركا، فكل ما كان يعوزه يد .. يد واحدة تعوضه عن التي طارت في حادث سيارة ... لا يعي ماذا جرى .. ؟!

كل ما لملمته شتات ذاكرته المتخبطة في تلك الليلة .. يد اقتلعت من جذورها لتطير بانفعال إلى الجهة الأخرى من الشارع ، كل ما يذكره هي أن تلك اليد عينها لم تكتف بالطيران ، بل حين ارتطمت أرضا دهستها بقسوة مميتة عجلات سيارة لا مبالية .. غاب عن الوعي كما غابت يده إلى أشلاء متعفنة..!

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-536-51-0
9 789933 536510

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITTERATES

nwf.com
نيل وفرات.كوم

لوحة الغلاف: الفنان محمد المزروعي